الكتاب الفضي
نادي القصة



يوسف ادريس

الحرام

قصة خاطئة مصرية

الناشر: الشركة العربية للطباعة والنشر

١

فى تلك البقعة من شمال الدلتا حيث يمتـد التفتيش واسعا عريضا لا يكاد البصر يصل الى مداه ، كانت الدنيا تمر بلحظـة السكون التام ، حين يكون الليل وما فيه من نقيق وصرير قد ولى وحين لا يكون النهار الكامل بأصواته وضجيجه قد أقبل بعد ، سكون تام مطبق وكأنما ستقوم القيامة بعده ، سكون جليل مهيب تتردد حتى أدق الكائنات فى خدشه . لم يكن يجرؤ على خدشه الا نصف كرة أبيض كان يغوص فى ماء الترعة ثم يطفو ليعـود يغوص محدثا خرخشة تتعالى وتدوى فى رحابة السكون . ظل هذا يحدث عددا غير قليل من المرات ، ثم حدث أن غاص نصف الكرة مرة ، وغاب أكثر من المعتاد غير أنه لم يلبث أن طفا فجأة مخترقا الماء فى ضجة عظمى ، وهذه المرة وضح أن لنصف الكرة جبهة ما لبث أن وضح أن لها عينين ثم فما ، ثم لم يلبث الوجه أن تكامل واستدار الرأس آخـذا طريقه الى الحافة ، وكلما تقدم ينحسر الماء عن رقبة ، ثم جسد أبيض من الخلف كثيف السواد من الأمام ، وقرب الحافة ظهرت الذراعان ، هزيلتين بالقياس الى الجسد الضخم ولكن على بطن الذراع اليمنى وشم فتاة ممسكة سيفا وكتابة لو دققنا النظر فيها لوجدنا أنها لاسم ، والاسم هو عبد المطلب محمد البحراوى .

خرج عبد المطلب من الماء ، ومع أن المنطقة بأسرها كانت خالية

من الأحياء ، الا أنه حين أصبح فى العراء انثنى على نفسه وضم يديه يخفى بهما عورته ، وبسرعة كان قد ارتدى ملابسه ، ملابس كثيرة مهرأة يضمها جميعا (بالطو) سميك مهيب أصفر اللون ذو تاريخ حافل اذ قد اشترك فى الحرب العالمية الأخيرة مع الحلفاء على هيئة خيمة ، ثم انتهى كما ينتهى المحاربون القدماء الى تلك النهـــاية .

وأخيرا ، صلى عبد المطلب ركعتى الصبح الحاضر والسنة ، ولفع البندقية ذات الروحين على كتفه ومضى على جسر الترعة يخب فى نعليه المصنوعتين من كاوتش العربات .

وبينما كان ماضيا فى طريقه الى العــزبة الكبيرة فوجىء عبد المطلب بجسم أبيض غريب يرقد على جانب من الجسر . وفرح عبد المطلب فهو ككل الناس ما يكاد يرى على الأرض شيئا يختلف لونه عن لون الأرض الا ويعتقد أنه عثر على (لقية) ، ويدق قلبه بالفـــرح .

غير أنه حين بربش بعينيه ، وعبد المطلب مع أنه خفير الا أن نظره على قده ، خاصة فى الضوء ، ما كاد يرى الشىء حتى تسمر فى مكانه مذعورا ومضى يصرخ : الله حى ، الله حى ، الله حى .

ذلك أن الشىء لم يكن الا جنينا حديث الولادة .

دق قلب عبد المطلب دقة عالية واحدة كالطلقـــة ، ثم انزوى يلهث فى صدره ويرتجف ، فهو صحيح خفير ولكن ما يراه أمامه الآن شىء مختلف تماما عن اللصوص وقطاع الطرق ، ولهذا فقد كان أول ما فكر فيه أن يطلق لساقيه الريح ويجرى ، اذ للوهلة

الأولى اعتقد أن ما أمامه عفريت ابن جنية ما فى ذلك شك .

غير أن عبد المطلب لم يجر ، بل وجد نفسه بعد ثوان يقهقه قهقهة عالية ، أعلى من أية قهقهة أخرى أطلقها فى حيـاته اذ كان يضحك على نفسه ، فقد أدرك بطريقة ما أن ما أمامه ليس عفريتا أو شيئا من هذا القبيل ولكنه رضيع ابن حرام على وجه الدقة ، وما كاد يتبين هذا حتى قهقه ، فقد تصور لأمر ما أيضا أن الجنين الذى يراه الآن هو ثمرة لليلة الماضية التى قضاها مع زوجته ولدته بعد أن غادرها ليستحم فى الترعة ويتطهر ، ثم ألقت به فى الطريق .

كان الخاطر لا معنى له ، اذ من غير المعقول أن تحمل زوجته وتلد جنينا كاملا فى نفس الليلة ، ولكنه فكر فيه ، فالانسان وهو مرعوب قد يقف عقله ويهرب بجسده ، أو قد يحـدث العكس فيتسمر بجسمه فى مكانه ويهرب بعقله ، والعقل فى جريانه المفزوع لا يتقيد بأى معقول .

وعلى أية حال لم تطل قهقهة عبد المطلب اذ قطعها عليه احساسه المفاجىء بالمسئولية . ومع أن البقعة التى وجد فيها الرضيع ليست من اختصاصه اذ هى من اختصاص خفير الجرن ، الا أن بعض الناس أحيانا لا يكادون يجدون ثمة خطأ حتى يلصقوه بأنفسهم ويحس الواحد منهم أنه هو المسئول عنه ، ويبدأ يدافع عن نفسه ليتهرب من المسئولية . وهكذا ظل عبد المطلب واقفا أمام اللقيط يدير فى رأسه خطط الدفاع عن نفسه أمام الناس وأمام مأمور التفتيش ولا قدر الله أمام النيابة والمحاكم . وبينما عبد المطلب

يفعل هذا كان قوس الشمس الأعلى قد بدأ يصفر ويبيض ويجوب الأفق مستكشفا ، وحين اطمأن الى أن كل شيء على ما يرام ، برزت من ورائه الشمس بحجمها الأحمر الهائل ، ومع بروزها بدأت الدنيا تزهزه ، وتدعو الكائنات الى اليقظة والعمل وبدأ أبو قردان يصرخ ويرفرف ، وبدأ الناس يظهرون ، أفرادا متناثرين أول الأمر قادمين من الجامع بعد الصلاة ، أو آخذين طريقهم الى الترعة يغسلون وجوههم ويستحمون .

ومع زهزهة الدنيا كان عقل عبد المطلب هو الآخر قد بدأت تعود اليه رباطة جأشه وبدأ يتفتح ، وكانت فكرة ما قد واتته بعد أن فشل فى تخليص نفسه من المسئولية :

لم لا يلقى باللفافة فى الترعة ولا من شاف ولا من درى . وتردد برهة بعد آه ، ولاه ، ثم لم يلبث أن تقدم من اللفافة باحتراس زائد .

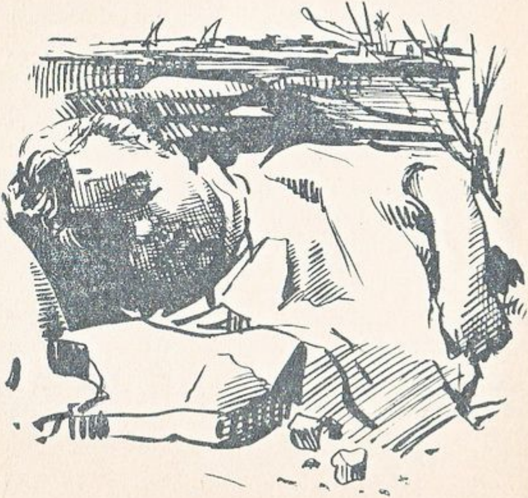
فى تلك اللحظة فوجىء بصوت خشن كفرع السنط يقول :

— اصباح الخير ياعبده .

وحملق فيه عبد المطلب بعينيه العمشاوين ، فقد كان عبد المطلب أبيض ، أعمش ، ذا عيون صغيرة ضيقة لا ترى الا فى الليل ، حملق فيه وقال جملته المشهورة عنه :

— اخص ع الناس . الله يكسفهم .

كانت كلماته تخرج ملفوفة فى سحابات صغيرة من بخار الصبح . وكان القادم « عطية » الذى لا يدرى أحد متى جاء الى



التفتيش ولا من أين جاء ، ولم يكن له عمل معروف حتى أثناء اقامته فى التفتيش ، لا ولم يكن له محل اقامة ، فهو ينام حيثما اتفق ، تراه على الدوام ، ممسكا ذيل قميصه من الخلف ، مظهرا سيقانه الخالية من الشعر . فاتحا عينا مغلقا الأخرى محدقا فى محدثه بوجهه النحيف الرفيع الذى لا يطمئن اليه أحد .

ظلت ذرات البخار تخرج من فم عطية لترد عليها ذرات بخار خارجة من فم عبد المطلب وأيديهما تشير مرة الى اللفافة ومرات الى الترعة والناس والعزبة والسموات العلا الى أن انضم اليهم الأسطى محمد . والأسطى محمد رجل الحادثات بلا منازع ، ما من واقعة مهمة تحدث فى التفتيش الا ويكون هو أول من يحضرها ، ولا يدرى أحد كيف تصل اليه أخبارها ، ولكنك حتما سوف تجده هو عجوز تعدى السبعين ذو لحية نابتة بيضاء وشعر أشيب وعين يسرى لا يرتفع عنها جفنه المغلق على الدوام . كان أسطى ماكينات فى التفتيش ، وحين كبر على العمل ، فصلوه ، ومع هذا فأحيانا يعهدون اليه بمهام مثل ايقاد الوابور الذى يدير ماكينة الدراس أو السهر بجوار طلمبة مياه . ولكنه على أية حال لا يزال يلقب بالأسطى ، ولا يزال رجل الحادثات ، ورأيه فيها لا يزال هو الرأى السديد . وهذه المرة ما أن عرف ما حدث ، ورنا الى الجنين بعينه اليمنى حتى قال : ده مش ميت ياعبده .. ده مخنوق .

واستنكر عبد المطلب هذا ، ولكن الأسطى محمد ما لبث أن أقنعه وهو يشير الى زرقة الجسد واحمرار ما حول الأنف والفم ،

طالبا منه أن يخلص نفسه من المسئولية ويبلغ مأمور الزراعة اذ هو الوحيد الذى يمكنه التصرف فى أمثال هذه الأمور .

ويبدو أن عبد المطلب اقتنع فما لبث أن مصمص بشفتيه وقال :

— أيوه : أحسن طريقة نبلغ المأمور .

قال هذا دون أن تصدر سحب بخار عن كلماته ، فالشمس كانت قد بدأت تبيض والأجساد بدأت تسخن والندى أخذ يزول .

٢

ولا أحد يدرى كيف تسرب الخبر الى العزبة ، فالثلاثة الواقفون أصبحوا ستة ، وما أسرع ما تجمهر حولهم الشغيلة السارحون الى الغيطان وفئوسهم على أكتافهم وغداؤهم فى مناديلهم. وما لبث أن انضم اليهم عمال ماكينة الدراس والمزارعون وبعض الأطفال الذين أيقظهم آباؤهم مجبرين ليزيلوا وخم النوم ويغسلوا وجوههم فى الترعة .

حتى النساء كن يتركن ما فى أيديهن من عجين أو خبيز أو طين ويسرعن ملهوفات الى الخليج ويلوثن الرجال وهن يدفعنهم ويفرقنهم ليرين ما هناك .

كل قادم كان يريد رؤية ابن الحرام هذا الذى مات لتوه ، فاذا ما زاحم وزاحم حتى وصل اليه وحدق فيه وملأ عينيه من البشرة البيضاء التى ازرقت وكادت تسود والرأس الصغير وما حوله من مشيمة ودماء ، ما ان يرى كل ذلك حتى يدير ظهره ويقفل راجعا وقد امتلأت نفسه وملامحه بمزيج قابض من الرهبة والغثيان .

وجاء مأمور الزراعة فى النهاية ، وسبقته الأيدى تدفع الواقفين وتفسح له الطريق . وكان فكرى أفندى المأمور لا يقل رغبة فى رؤية هذا الحادث الجديد عليه وعلى العزبة عن أى من الواقفين ، ولكن كان حريصا فى الوقت ذاته على ألا يفقده ذلك الشغف هيبته ، فما ان قارب المتزاحمين حتى مد يده وأحكم

اعوجاج طربوشه فوق رأسه ، ثم اكتست ملامحه السمراء طابع الجد وعقص رقبته فى صلف كما يحب أن تكون عليه حين يراه الفلاحون ، ثم وقعت عيناه على المشهد . ولم يفلح هذه المرة فى اخفاء ما اعتراه هو الآخر من رهبة وغثيان ، بل بدت واضحة تمام الوضوح على وجهه وتقلبات شفتيه ثم استدارته على الفور الى حيث يستطيع مغادرة المكان والابتعاد عنه .

وتبع المأمور فى ذهابه الخولى وخفير الرى وطنطاوى والأسطى محمد ونفر قليل من (التملية) والشغيلة . ساروا صامتين واجمين، والمأمور يبصق تارة فى منديله الأبيض المكور وتارة على قش الطريق المبتل .

٣

وكان من الممكن أن تنتهى مهمة فكرى أفندى المأمور عند هذا الحد ، فهو صحيح مسئول عن كل كبيرة وصغيرة تحدث فى التفتيش ، الا أن العثور على لقيط ميت أو مقتول ومحاولة العثور على قاتله مسألة لا تدخل فى اختصاصه بالمرة .

وذلك فعلا ما كان يدور فى رأسه وهو يمشى الهوينى فى الطريق الى مبانى ادارة التفتيش وخلفه ذلك الجمع الصغير . غير أن حب استطلاع ما بدأ يراوده . ترى ابن من هذا ؟ .

التفتيش مكون من عزب كل عزبة لا تتعدى بيوتها الثلاثين بيتا . وهذا اللقيط وجد على خليج العزبة الكبيرة المقامة بجوار سراية أصحاب الأرض والادارة حيث الاصطبلات والجرن والمخازن وجراجات مكن الحرث . لابد اذن أن اللقيط ابن لواحدة من أبناء هذه العزبة الكبيرة أو بناتها ، والعزبة يكاد يعرف نساءها وبناتها بالواحدة ، ترى أيهن هى التى فعلت هذه الفعلة ؟ وترى كيف فعلتها ؟ . فكرى أفندى طالما سمع فى القصص والحواديت عن أولاد الحرام ، وأحيانا كانت تبلغه فضائح مثل هذه كأخبار ليس الا عن أناس لايعرفهم ولايدرى أشكالهم ولا ماذا يكونون . وفى أعمق أغواره ، وحتى لو كان قد قرأ الخبر فى جريدة المقطم نفسها التى يؤمن بكل كلمة تقولها ، فانه كان يجد نفسه لا يكاد يصدق الخبر ، لا يكاد يصدق أن أحداثا كبيرة شنعاء حراما مثل

هتك العرض أو الحمل سفاحا ممكن أن تحدث فعلا . ولكنه رأى اليوم بعينه جسم جريمة كاملا ميتا يكاد يمد أصبعه ويضعه فى عين كل من لا يصدق . كانت أحاسيس غريبة تلك التى تملكته وهو واقف يحدق فى اللقيط . كأنه يرى الشيء الحرام الذى كان يأبى أن يصدق وجوده أو استحالة اقدام الناس على فعله ، يراه أمامه مجسدا راقدا على حافة الخليج . أحاسيس كثيرة عصفت به. الحرام اذن موجود لدى الناس ، أحيانا لا يستطيعون اخفاءه ، ولكنه أحيانا يهزمهم وينتصر على رغبتهم فى اخفائه ويظهر متبلورا فى لقيط مسجى أو فى بطن منفوخ . الحرام الذى كنت تسمع عنه يافكرى أفندى ولا تصدقه موجود ، وأمامك الفرصة مواتية لترى فاعلته كما رأيته .

تلك فى الواقع هى الفكرة التى كانت تلح على خاطره أثناء رجوعه الى مبنى الادارة . ترى كيف تكون فاعلة ذلك الحرام ، أو على وجه الدقة ، كيف تكون الزانية ، ما من مرة ذكرت أمامه الكلمة الا واقشعر بدنه ، مع أنه كان له مثلما لمعظم الناس علاقات قبل أن يتزوج وحتى بعد أن تزوج ، ولكن وكأنما كان يستبعد أن يوجد نساء فى العالم يخطئن مثلما تخطىء النساء معه . وكأنما من أخطأن معه لسن زانيات ، الزانيات هن من يخطئن مع غيره .

ترى كيف تكون تلك المرأة ، وهل تكون جميلة ، وهل تشبه الغوازى ، وهل هى مثل سائر النساء أم لا ريب تنفرد بألاعيب وحركات وتأودات هى التى جعلت ذئبا من الرجال يستفرد بها ويفعل معها الحرام ؟

وقف فكرى أفندى فى منتصف المسافة بين الخليج وبين الادارة ، واستدار ، واستدار الجمع الذى خلفه لاستدارته ، وراح يستعرض العزبة الكبيرة أمامه ببيوتها الداكنة والدخان الذى كان قد بدأ يتصاعد من الخروق الكثيرة فى سقوفها . على رأس العزبة يقع بيت مسيحة أفندى الباشكاتب ، وبجواره بيت أحمد سلطان الكاتب . الشاب الأشقر ذى الطربوش الغامق المعوج والبالطو الأسود النظيف ، الولد الشباب الحلو الذى طالما ضبط وهو يغمز بنتا من البنات الفائرات الكبيرات اللاتى كن أحيانا يغدن للعمل فى التفتيش ، وغمزته دائما كانت تكهرب البنت منهن حتى لتجعل أثداءها تقفز فى الهواء . ولكنه لا يبحث عمن قد يصلح الأب ، هو يبحث عن الأم . فهو مستعد أن يصدق الحرام فى الرجال ، ولكنه لأمر ما يصعب عليه أن يصدق الحرام فى النساء . الرجل دوره فى الحرام طيارى أما المرأة فدورها أساسى . هو يبحث عن الأم . وفى بحثه هذا لم يترك أحدا . امرأة الباشكاتب الست أم لنده حتى تناولها بحثه ، ولكنها كانت فى زيارة لزوجته فى الأسبوع الماضى ولم تكن أبدا حاملا . ومن بيت الى بيت تنتقل عيناه ، بيوت المزارعين الكبار الذين لدى الواحد منهم أكثر من ثلاثة أزواج من البهائم ، وبيوت التملية الذين لا يملك الواحد منهم الا فأسه . ونساء العزبة جميعا يمررن أمام عينيه ، التى يعرفها تماما ، والتى لا يكاد يعرفها ، التى لها ضحكة وابتسامة ، والتى لها قمطة حمراء أو جلابية فاقعة الألوان ، البنت والعانس والعازبة والمطلقة والمشكوك فى أمرها ، التى استجابت لهزاره مرة والتى خجلت ولم

تستجب . ولم تتوقف أنظار فكرى أفندى عند بيت من البيوت ، ولا عند واحدة بعينها من النساء . فلا أحد فى العزبة يستخبى . النساء كلهن يخرجن حتى من غير أن يرتدين (الملس) الأسود فوق ثيابهن الملونة . وكلهن معروفات . لم يلاحظ أحد على واحدة غير متزوجة حملا أو انتفاخ بطن . لا يمكن أن تكون احداهن هى أم ذلك اللقيط ، مستحيل .

وأفاق المأمور من تأمله الطويل للعزبة ومن فيها ، ودار بعينيه على وجوه الرجال القليلين الملتفين حوله وكان يتوقف هنيهة عند كل وجه ويحملق . وعند كل توقف كان يصفر وجه اذ يكاد صاحبه يشك فى براءة نفسه ، ويكاد يصعقه أن تطول تحديقة المأمور فيه مرة ثم يشير اليه قائلا :

— أنت .

ولكن ادارة المأمور لوجهه وعينيه كانت امعانا فى التفكير ليس الا ، وتثبتا من وجاهة الرأى الذى استقر عليه .

وأشار فكرى أفندى فجأة بالخيزرانة التى كانت معه ، أشار الى الفضاء الكائن خلف الاصطبلات وقال :

— لازم واحدة من دول .

وتطلعت العيون والقلوب الى حيث يشير ، وجاءه الجواب من أكثر الواقفين ، وكأنه فرحة البراءة :

— هم . مافيش غـيرهم . ودى عايزه كلام . دول غرابوه ولاد كلب .

قالوا هذا وتحفزوا جميعا لأى اشارة تصدر عن المأمور .

غير أن المأمور لم يشر بشيء فقد عاد الى حذائه الكالح يحدق فيه ، وعادت عصاه الخيزران تعبث برباط حذائه أحيانا وبالقش أحيانا أخرى .

ثم قال :

— والله يمكن البت نبويه .

فقال صالح الخولى وقد غير رأيه على الفور :

— وما يمكنشى ليه .. دى تاجرة بيض ولعبية .

وقال الأسطى محمد :

— دى بقالها عازبة زمان..حد عارف يمكن أستغفر الله العظيم.

وقال عبد المطلب الخفير :

— والله ما فى غيرها .

غير أن المأمور لم يمهلهم ، ما لبث أن استدار ، ومضت عيناه تتأرجحان حتى استقرتا عند الفضاء الكائن خلف الاصطبلات وقال:

— أبدا . هم دول مافيش غيرهم .

وغمغم الواقفون حوله يلعنون الغرابوة ويؤيدون .

٤

والغرابوة . ليسوا من قاطنى التفتيش ، ولا يمكن لأحد أن يتصور أنهم من قاطنى التفتيش اذ أليسوا هم أكثر الناس فقرا فى بلادهم الذين يدفعهم الفقر الى اللجوء الى العمل فى التفاتيش البعيدة وترك دورهم وقراهم سعيا وراء يومية لا تتعدى القروش القليلة ؟ أليسوا هم ذوى الأسمال البالية ، والرائحة الغريبة والخلقة الكريهة ؟ لا يمكن لأحد أن يتصور أناسا كهؤلاء من قاطنى التفتيش ، فقاطنو التفتيش كلهم مزارعون محترمون ، لكل منهم بيته وأولاده وبهائمه وجلبابه النظيف الجديد الذى يرتديه بعد انتهاء العمل ليسهر به فى القهوة ويروح به المآتم والأفراح . وليس بين قاطنى التفتيش عاطل فالعزب مبنية بحيث تستوعب المزارعين كلهم وكأنما هو مصنع كبير خصص جزء منه لسكن عماله ، وعلى هذا فهم جميعا يعملون ، وهم جميعا معهم نقود ، والزوجة تدخل على زوجها بسرير ودولاب وأطباق صينى وأحيانا بماكينة خياطة ، والعمل ليس مرهقا الى الدرجة التى لا يتصورها العقل ، فالرى بماكينات ، والحرث بأوتومبيلات ، والدراس بماكينة كبيرة جدا تحتل وحدها نصف الجرن . وصحيح أن التفتيش يأخذ معظم ماتنتجه الأرض ، ولكن مايبقى للفلاح ما يستره ، ويكسيه ، ويطعمه ويجعله حتما ينظر الى الغرابوة هؤلاء نظره الى نفاية بشرية جائعة مضطرة الى الهجرة كى تعمل وتأكل وتنال حظا من الحياة . حتى

اسمهم لم يتفق عليه أحد ، رجال الادارة يسمونهم (الترحيلة) ، والفلاحون يسمونهم (الغرابوة) . أما هـؤلاء الذين تعودوا (المقلته) والتريقة فيسمونهم « الجلب جل الجشج عنه ما جلو يا سيد عنجلو » ومعناها « الكلب كل الكشك عنه ماكلوا ياسيد (السيد البدوى)عنقلوا » ، اذ هكذا ينطقون الكاف ، وهكذا يحتقر فلاحو التفتيش كافهم ولهجتهم وحتى مجرد وجودهم على أرض تفتيشهم .

أما الغرابوة أنفسهم فقد كانوا لا يقيمون وزنا كبيرا لتريقة الفلاحين أو نظرتهم وكأنما هم معترفون أنهم غرابوة وأنهم ترحيلة وأنهم أى شىء قد يخطر على بال انسان . فما دام الواحد منهم قد حظى بمكان فى الترحيلة وضمن أن يعمل أكثر من ثلاثة شهور كل يوم وبأجر ، فليقل عنه القائلون ما شاءوا .

والقطن يزرع فى أواخر الشتاء ، وما ان تولى طوبة حتى تكون بذوره قد تشققت واخترقت الأرض السمراء ونبت لكل بذرة جذر ونما لها ساق ، وحين تكبر العيدان فتغطى المساحات الواسعة السوداء بطبقة خضراء جميلة ريانة ، ويحل أوان الدودة ولطعها حينئذ يدور الجدل حول الترحيلة . يكتب فكرى أفندى خطابا للادارة فى مصر والادارة ترد بخطاب ، ثم يأتى الاذن ، ويأتى المبلغ ، ويستيقظ فكرى أفندى ذات يوم مبكرا ، ويأخذ أول قطار ، ويغير فى طنطا ، ثم تحمله عربة أومنيبوس (لا ينسى أن يقيدها فى كشف الحساب عربة أجرة) الى قرية من قرى المنوفية أو الغربية ، غير مهم ، ففكرى أفندى يعرف قرى كثيرة ومقاولين

كثيرين ، قرى يسميها هو عش النمل ، فالناس فيها كثيرون ، أكثر من اللازم ، أكثر من العمل المطلوب ، والطعام الموجود ، وكلهم ولله الحمد فقراء ، فقراء الى الدرجة التى كان فكرى أفندى نفسه يهز رأسه حسرة حين يراهم فى بلادهم وكيف يعيشون . المهم حالما يضع قدمه فى بلدهم ينتشر خبر وصوله بطريقة سريعة غامضة خفية فيتجمع منهم مئات ويكونون موكبه ، يسيرون أمامه وخلفه وعلى جانبيه ويرمقونه فى تدله وأمل وكأن لديه أجولة أعمار سيفرقها عليهم بعد حين . يحيونه ويتهافتون على لمسه ولفت نظره ، والشاطر من يسلم عليه ويقبل يده ، ويدله ألف على بيت المقاول مع أنه لا يكون فى حاجة الى دليل، فمن أعوام وهو يهبط القرية ، والطريق الى بيت المقاول فى قرية صغيرة كتلك لا يمكن أن يضل فيه انسان كفكرى أفندى حباه الله عقلا ومعرفة وطربوشا ونابا أزرق . هناك يجد المقاول واقفا على عتبة البيت ان لم تكن ضجة قدومه قد وصلته وأوقفته على عتبة الشارع . وسلامات تدور من النوع الثقيل ، ولا بأس من دمعة تفر من عين المقاول حسرة على الأيام الحلوة التى مضت . ويصر الرجل على أن ينادى فكرى أفندى بحضرة المفتش ، ويخجل فكرى أفندى ويتواضع ويقول : ياسى الحج . وتطير رقاب الكثير من الحمام والبـط . ويأكل المأمور ويحلى ويضطجع ، ويحتسى القهوة ، وينفث فى تلذذ دخان السيجارة التى عزم عليه بها المقاول وأقسم بالطلاق أن يدخنها ، بينما الضجة خارج بيته تزداد ، والنمل الكثير يخرج من جحوره اذ قد جاء الأمل فى العمل ، يخرجون من جحورهم ويتعانقون أمام البيت

ويتصايحون : جاء الفرج يا أولاد والأشيا ح تبقى معدن . ويتناقش الضيف والمضيف قليلا أو كثيرا حول (الفية) أو الجعل . المأمور يقول النفر بسبعة قروش ، وقرش (فيه) يبقى بواقع ثمانية . ويصر المقاول على عشرة . ويقول المأمور : تبقى مكشوفة قدام أصحاب الأطيان . وينتهى الأمر ربما الى تسعة . ويخرج الناظر حافظته ، ويشعر بالدفء والفجيعة والأوراق الكبيرة الخضراء ذات المادنة تلمس يده بالكاد ليعدها ثم تختفى فى كيس المقاول المصنوع من الكتان والمرسوم عليه هلال وثلاثة نجوم مكتوب تحتها ولا أحد يدرى لم : الحكومة المصرية . وما يكاد هذا يحدث حتى يتفرق المنادون المتطوعون فى البلدة : النفر بستة يا أهالى والقبض على خمستاشر يوم والغايب يعلم الحاضر . مع أنه لاتكون هناك حاجة الى منادين أو نداء فجميع (الأهالى) موجودون متزاحمون عند بيت المقاول فى الحارة وعلى الأسطح المجاورة وأمام الأبواب .

ويصبح الصباح وتأتى خمس من عربات النقل الكبيرة ذات التصاريح الخاصة بنقل الأنفار (مثلها مثل التصاريح الخاصة بنقل أجولة الأرز أو المواشى) تحمل كل منها أكثر من مائة نفر من الرجال والبنات والنساء والأطفال ، وتحمل أيضا صررهم وقففهم وقد ملؤوها لآخرها بزوادة العيش وزلع المش والجبنة ، تحملهم فى كتلة ضخمة متزاحمة لاتكاد تميز فيها الرجل من المرأة ولا الولد من البلاصى . ومع انطلاق العربات تنطلق الحناجر المتلاصقة المحشورة تغنى وتضحك ويصل زعيقها الفرحان الى عنان السماء ..

بينما العيون .. عيون المرضى والعجزة وكل من لا يستطيع حمل الفأس أو حتى الظهر ، عيون المتخلفين الزائدين عن المطلوب ، ترقب الموكب المنتصر ، الموكب الدالف الى العمل والأجر ولقمة العيش وملء الصدر أنفاس ، ترقبه فى عجز باك ، وحسرة ، وربما كلمة ذليلة يتصدق بها الجار على جاره : الصبر .

وتعلن العربات قدومها الى التفتيش بسحابات غبار ضخمة تثيرها ، وتملأ بها الأفق ، ومع هذا فقليلا ما يسترعى ذلك القدوم انتباه من فى التفتيش الا أن يقف أحدهم ويراقب العربات القادمة ويقول لمن يتصادف وجوده وهو يضحك ساخرا : الجلب جل الجشع عنه ما جلوا .

وهناك .. خلف الاسطبل ، يرص الغرابوه مقاطفهم صفوفا وراء صفوف . وينطلقون الى الجرن والأرض المجاورة يجمعون قش الأرز والأحجار ، ويصنعون منها مواقد وأفرشة .

وقبل شروق شمس اليوم التالى تطفح فى الجـو رائحة المش وقد فتحت أوانيه ، وبين الحين والحين تسمع خشخشة بصلة تتكسر وهمهمات وصرخات بنت لم تجد زوادتها ، وأصوات خيزرانة الريس وهى تدق على قفة أحدهم دقا ملحا متواصلا يستعجل به انهاء الطعام والمسير .. ولا يلبث الدق أن ينتقل من القفف الى الأقفية والأجساد ، ولكنه أيضالا يتعدى الدق ، ثم يصرخ الريس، وحينئذ تقوم الترحيلة فى كتلة ضخمة غامقة اللون ، لا تلبث أن تتبعها مفردات متناثرة ، ويكون موكبهم أول من يضع أقدامه فوق المشاية التى ختمها الندى ، وتشرق الشمس وكل منهم قد تسلم

خطا ، ولابد ظهر كل منهم محنى ، وعينه على اللطعة .

وقبل كل غروب يزدحم دكان جنيدى أبو خلف وهو الدكان الوحيد فى العزبة الكبيرة ، يزدحم بالأطباق الفخـار والأيدى الجافة الممدودة والأصوات التى جرحتها عيدان القطن وهى تطلب فى الحاح وبلهجتها الغرباوية المعووجه .. بتلاته ميلم زيت .. بميلم ملح .. بربع قرش عسل .. بتعريفه دفتر بافره .. ويسب جنيدى الغرابوه واليوم الذى جاءوا فيه ولكنه يبيع ، ويلعن آباءهم ويبيع وتتكوم فى درجه المزيت ملاليمهم الصدئه ونكلهم ، كلها ملاليم ونكل ، وأكبر قطعة فئة عشرة مليمات . وفى الغروب تماما ، وقبل أن تظلم الدنيا ، تختلط خلف الاصطبل رائحة الزيت المقدوح برائحة السمك الصغير المشوى برائحة الجبنة القديمة والعدس والبصل والصابون الفنيك ، تختلط الروائح فى مزيج نافذ غريب مكونة رائحة خاصة ، من شدة دلالتها ونفاذها يسميها الفلاحون رائحة الترحيلة . تتصاعد الروائح ، وتتفتح البلاليص ، ويوضع كل ما استطاعت اليد انتزاعه من الغيط ، فجل أو سريس أو جلاوين أو خنشير ، وتحشى البطون بكل هذا كما تحشى الأجولة بالقش ، بينما الصمت يسود المكان ، صمت لا يسمع خلاله الا أصوات التشدق بلقم العيش، وأصوات بعيدة لملاعق قليلة تصطدم بالأوانى النحاسية وتقتلع منها ما التصق بقاعها من حبات أرز .

وتحمل الريح الضجة والرائحة الى العزبة الكبيرة وقاطنيها ، فتنطلق النكات وتتصاعد القهقهات ويزداد الناس ايمانا بأنهم حقا وصدقاً نفاية بشرية منحطة .. أولئك الناس .. الذين يدعونهم التّرحيلة.

٥

طمس فكرى أفندى الدائرة التى كان قد رسمها بعصاه على تراب الأرض ووضع فى وسطها نقطة وأخـرج منها خطوطا الى محيط الدائرة ، بل دار بقدمه عليها حتى لم يبق منها سوى النقطة وقد خرجت منها خطوط مبتورة .. لم تكن لديه خطة واضحة ، فحتى مع افتراض أنه قد حدد أن الفاعلة من الغرابوة ، فماذا يمكنه أن يفعل ليعثر عليها . مضى يعتصر عقله ويده تدق بالخيزرانه على رجل سرواله الأصفر وعيناه تائهتان فى ملل المفكر . اذا كانت ثمة امرأة من الغرابوة قد فعلت هذا فلا بد أنها راقدة الآن عند مكان الترحيلة . لابد هذا ، فمن غير المعقول أن تضع الواحدة مولودا كهذا وتقتله أو يموت منها وتذهب فى الصباح التالى لتعمل وتمسك خطا . والمسألة فى يده وليس عليه الا أن يتأكد .

تجهم وجه فكرى أفندى علامة أنه وصل الى قرار ، وتحرك ومعه الجمع الصغير الى مكان الترحيلة . كان المكان خاويا ليس فيه سوى القفف والمواقد وبقايا الخشب المحترق وروائح الغروب فالأنفار كانوا قد ذهبوا قبل الشروق كالعادة الى الغيط . أدرك فكرى أفندى ومن معه هذا بنظرة واحدة عريضـة ألقوها على المكان ، ولكنه آثر أن يبحث بنفسه لعل وعسى . وراح يتجول مطاطأ الرأس وقد وضع يداه واحداهما ممسكة بالخيزرانة وراء ظهره . راح يتجول ويشمشم ويخبط القفف وأجولة الزوادة بين

آن وآخر من قبيل الاحتياط . ظل سائرا هكذا ووراءه الجمع حتى وصلوا فى النهاية الى (أم الترحيلة) كما كان يدعوها أطفال العزبة. والمرأة عجوز من كثرة كبرها لا تستطيع أن تحدد لها سنا ، ومع هذا فهى تعمل كالأنفار تماما وتقبض نصف يومية ، غير أن عملها أخف ، فهى تحرس صرر الترحيلة وحاجياتهم وترعى الأطفال حتى تعود أمهاتهم فى آخر النهار . توقف الناظر أمامها وغالب ابتسامته وهو يرى العجوز وحولها عشرات الأطفال بعضهم فى حضنها وبعضهم قد سبح وحبا بين الصرر ، بعضهم يصيح والبعض الآخر هادىء ساكن عاقل يعبث بثوب المرأة وأقدامها ، غالب الابتسامة فالمرأة كانت حائرة ملتاعة لا تعرف كيف تتصرف ، ولا ماذا تقول للأطفال أو كيف تحنو عليهم وبينها وبين خصال الأمومة ورعاية الأطفال أزمان وأحقاب .

وعبثا حاول أن يظفر منها بجواب على كل ما وجهه اليها من أسئلة ، فهى فى غيبوبة السن والعجز لا تعى الا حين يقترب بشر ما من المكان فتصرخ فيه أن يبتعد ، والا حين تحضر الأمهات قبل الغروب وتقوم الجلبة التى تنتهى بانسلال كل أم ومعها طفلها ، أو التى لا تنتهى حين تروح تتعثر فى البحث مع أم عن ابنها وقد تاه بين الصرر .

ولم يكن فكرى أفندى حتى فى حاجة لسؤال المرأة ، فلم يكن هناك أحد ، ومعنى هذا شيء من اثنين : اما أن تكون الفاعلة المجرمة قد تحاملت على نفسها وذهبت مع الأنفار لتعمل حتى

لا تكتشف ، واما أنهـا ليست من الغـرابوة وقد تكون من أهل العزبة .

عند هذا الاحتمال الأخير توقف المأمور وراح مرة أخرى يحدق فى الفضاء ويجوبه بعين نصف مغمضة وعين مفتوحة ، وفكر قلق مخلخل. هو على يقين قاطع أن الفاعلة منهم كيقينه بيوم القيامة والنفس اللوامة ، ولكن هناك احتمال واه بسيط ، أن تكون الفاعلة من العزبة خاصة ومكان الغرابوة نظيف ، احتمال تافه قد لا يتعدى واحدا فى ألف ولكنه احتمال والسلام ، عليه أن يناقشه . لقـد استعرض العزبة من هنيهة وكانت النتيجة براءة نسائها جميعا ، ولكن من الجائز أنه سهى أو نسى ، أو فاتته واحدة تكون هى الجانية ، من الجائز جدا .

لم يفطن المأمور وهو يفكر الى اقتراب صالح خولى الزراعة منه ، لم يفطن الا حين أصبحت طاقية صالح الصوف التى يتعمم عليها تحت أنفه تماما ، والا حين رفع صالح ذيل بصره فى نظرة ماكرة مقترحة ، وقال فى همس مبتسم :

— ماتكونش نبوية هى اللى عملتها ليه ؟

خرجت كلماته هامسة ، ولكن همساته سمعها كل المرافقين وعلت الأصوات تحتج وتؤكد أنهم الغرابوة وتكاد تحلف على المصحف والربعة ، وتندد بالاتهام ، والباعث عليه ، وتشرح فى كلمة من هنا وأخرى من هناك قصة نبوية التى كانت زوجة لعربجى من عربجية التفتيش ، ومات ، وترك لها العربة والحصان وبنتا وولدا ، فباعت العربة والحصان وتاجرت بثمنهما فى (القوطة) ، وأفلست

وعملت مقاولة أنفار وخبازة ، وخدامة فى بيت المأمور السابق ، واشتغلت أخيرا تاجـرة بيض . وربت البنت والولد . بل حتى أرسلت الولد ليتعلم فى الكتاب ، ولم تفرط فى أى منهما ، ولكن مسألة تفريطها فى نفسها كانت موضع أخذ ورد ومساجلات وتكهنات.

ارتفعت الأصوات تنـدد وتحتج وتراقب أثر الكلام على وجـه المأمور ، ويبدو أن الواقفين حين لم تبد على ملامحه دلائل الاقتناع بدأوا يتراجعون ، وبدأ واحد يقول :

— لا يعلم الغيب سـوى الله ياجماعة . ورد عليه آخـر : الشيطان شاطر .

غير أن نبوية التى تتميز عن نساء العزبة بأرداف وارفة وخلخال فضة سميك يكاد يطبق على نهاية ساقيها المكتنزتين ، نبوية هذه لم تلبث أن أخرست كل الألسن حين شاهدها المأمور ومن حوله وقد علقت (السبت) فى يدها وراحت تطرق الأبواب وهى فى أتم صحة وتسأل عن البيض . استدارت الأنظار حينئذ شامتة الى صالح تكاد من حدتها أن تخرق طاقيته الصوف وعمامته البيضاء وجلبابه الأسود الثقيل الذى لا يغيره أبدا . وتشاغل صالح عن الأنظار المصوبة اليه بأن مد يده فى جيبه وأخرج صندوق سجائره وانتحى مكانا بعيدا — من قبيل التأدب — ومضى يلف سيجارة ..

أما المأمور فقد غامت ملامحه لدى رؤية نبوية وأسرع بمغادرة المكان وقد بدأ صدره يضيق ، وزعق بصوت مرتفع .

— الركوبة ياعبد المطلب .



لم يعد ثمة أمل الا أن يجد الفاعلة بين أنفار الترحيلة الذين يعملون فى الغيط .

وجاءت الركوبة بعد قليل ، حمار ناعم ممتلىء لا يظهر منه عرقوب ، ولا تبدو فى بياضه الناصع سوادة واحدة ، يرن لجامه اذا ما خطا ، وخطوه خطو حصاوى أصيل .

استند المأمور الى كتف عبد المطلب وبدفعة قوية من جسده كاد ينخ لها الخفير ارتقى السرج المكسو الأنيق .

وما كاد الحمار يحس باستواء راكبه فوقه حتى نهق نهيقا طويلا فيه كبرياء ، ثم اندفع الى الأمام وانطلق وراءه كل الخولة وبعض التملية وعبد المطلب الخفير والأسطى محمد العجوز .

٦

كانت الشمس اذ ذاك قد غادرت قمم أشجار الكافور العالية المزروعة كالسور المهيب حول أرض التفتيش ، وبدأت تحث الخطى الى قلب السماء . وكان الطريق الذى سلكه الناظر قفرا ليس على جانبه شجرة : ولا حتى تنبت فوقه حشيشة ، بل مجرد خط تخين من التراب على يمينه مئات الأفدنة وعلى يساره مئات . وكان الغيط أيضا ساكنا ذلك السكون الأبدى الذى يذكرك دائما بوجوده فيئز ذلك الأزيز المتواصل العنيد . ولم يكن يخدش ذلك السكون سوى دقات أرجل الركوبة الأربع وهى تدق الأرض واحدة وراء الأخرى فتكاد تغوص فى التراب وتثير سحب الغبار . والغبار ينهال على وجوه اللاهثين خلف المأمور وركوبته ، غبار كالذباب لاسع وعنيد ، وشمس لا ترحم بدأت تشوى رؤوسهم وظهورهم ، حتى ذيول أثوابهم لم تفلح فى منع نارها . أما فكرى أفندى فقد وضع منديله أسفل الطربوش محاولا أن يجعل منه قبعة ، وكال للركوبة ضربتين بكعب حذائه وأعقبها بنخزة من طرف خيزرانته المدببة التى وضع فى آخرها مسمار صغير معد لهذا الغرض بالذات ، نخزة جاءت بين الأكتاف . ولم تكن الركوبة فى حاجة الى ضرب أو نخز ، فقد كانت منطلقة بكل ما تملك من قوة .

ظل الركب الصغير ينهب أرض المشاية ، وهو ومأموره وتابعوه وحتى سحب الغبار التى يثيرها لا يتعدى مجرد نقطة صغيرة متحركة

فى ذلك المسطح الشمسى الواسع الذى لا تدرك العين مداه . ظل الركب ماضيا فى صمت . الركوبة تلهث والرجال يلهثون والعرق يسيل ، حتى عرق فكرى أفندى الوحيد الجالس كان هو الآخر يسيل . ظل الركب ماضيا هكذا مدة أدرك بعدها الأسطى محمد العجوز وكأنما فجأة أن لا ناقة له ولا جمل فى الأمر ، فكف عن الجرى ونفض يده من حكاية اللقيط ، وجلس على حافة الطريق يكمل لهثه ويستريح . جلس على الحشيش القصير النابت على شاطىء الخليج وكأنه شجيرة عجوز نبتت بينه فجأة ، بل ما لبث أن فعل مثل شجيرات الحشيش الجالس عليه ، فكما مدت هى جذورها الى الماء الجارى فى الخليج ، مد هو الآخر قدميه وساقيه يبللها بالماء وكأنما يسقى بهذا روحه التى كاد يقضى عليها لظى الشمس .

أما بقية القافلة فقد مضت فى طريقها وكأنما لم تحس بتخلف العجوز وكل منها مشغول بعرقه وشقاه وحاله .

وما من مرة امتطى فكرى أفندى الركوبة فيها وسرح الغيط — وهو كل يوم يمتطى الركوبة ويسرح الغيط — الا وأحس بمتعة ، فالحمار لا يمشى ولكنه يرقص ، وكل حركة منـــه فيها رشاقة الأصيل وكبريائه . ولكنه هذه المرة كان فى شغل شاغل عن متعة الركوب وحتى عن العرق والحر والرجال الذين يلهثون خلفه بتلك المشكلة التى ولدت له ذلك الصباح . كان عليه لأول مرة أن يفكر فى شىء بعيد كل البعد عن مهنته كمأمور زراعة ، تلك التى كان لا يفكر فى غيرها ، كان عليه أن يفكر فى شىء بعيد كل

البعد عن التقاوى والسماد والأرض العطشى والأرض التى حان وقت تسميدها ووجب . أما هذا الشيء الذى كان عليه أن يفكر فيه فهو الترحيلة ، لا كما اعتاد أن يفكر فيهم فالواقع أنه ما تعود أن يفكر فيهم الا كأنفار ، أنفار يلتقطون الدودة ويجمعون القطن ويطهرون المصارف . الشايب فيهم نفر والصغير نفر ، كلهم أرجل شققها الجوع والحفاء وخشنتها الأرض الصلبة ، وأيد معروقة حرقتها الشمس ، ووجوه متجهمة لا تعرف حزنها من فرحها ولا رجلها من امرأتها . حتى الملابس لا فرق بين ملابس الكبير أو الصغير ولا بين جلباب الرجل وقد حال لونه وتناثرت فيه الخروق وثوب المرأة الأسود الباهت الذى تنسل الخيوط من كل مكان فيه ، بل كثيرا ما يحدث أن يستعير الرجل منهم جلباب امرأته ، وتستعير المرأة جلباب زوجها دون أن يلاحظ أحد أى فارق أو مميز .

تعود فكرى أفندى أن يراهم هكذا ، بل الواقع أنه بينه وبين نفسه لم يكن ليتصور أن بين هـذا القطيع البشرى كله امرأة واحدة . كلهم ترحيلة وغرابوة وأنفار . بل أكثر من هذا . لقد افترض أن الفاعلة منهم ، قال هذا للناس ، وذهب بنفسه وبحث خلف الاصطبل ، ولكنه كان يفعل هذا وكأنه يفعله من وراء عقله. كان متأكدا أن الفاعلة منهم ومع هذا لم يكن ليصدق أن من الممكن أن توجد بين هذه المجموعة امرأة أو بنت تحمل وتلد حلالا كان أو لقيطا ، لم يكن ليصدق وكأن التى ولدت اللقيط لم تكن امرأة بل كانت رجلا .

هو مضطر اذن والشمس تلهب رأسه رغم المنديل والطربوش

أن يصدق هذا ، وأن يبدأ ينظر الى الترحيلة من زاوية أخرى . فهم صحيح أنفار وغرابوة ولكن بينهم أيضا نساء يحملن ويلدن . بل أكثر من هذا يحملن ويلدن فى الحرام .

الحقيقة لم يسترح عقل فكرى أفندى أبدا لهذا التصور فقد كان من العسير عليه أن يغير نظرته الى الترحيلة فى لحظة ، وكان من الصعب أن يستحيل النفر منهم فى خاطره الى امرأة أو بنت تنام مع الرجال وتحمل وتنجب أطفالا . ولكن فكرى أفندى كان من الصنف الذى لم يتعود قلقلة الحقائق فى رأسه كثيرا قبل أن يصدقها فليكن هذا ، فلتكن الفاعلة منهم ، عليه أن يعثر عليها ، ويراها رأى العين ، ويرى كيف استطاعت أن تفعل هذا . بل لم ينتظر فكرى أفندى أن يصل الى الأنفار ، بدأ خياله يسرح ويسبقه، بل ويسبق حادثة اليوم ، ويتصور — وثمة لذة خفية تصاحب تصوره — القصة التى انتهت بمشهد ذلك الصباح ، راح يتجسس بخياله على القصة فى غير قليل من الخجل ، وهو مستعد أن يكف عن تصوره فى أية لحظة ، راح يسبح مع قصة الحب التى لا ريب أنها نشأت بين البنت وأحد فتيان الترحيلة المفتولى العضلات المكشوفى الصدور الملوحى الوجوه ، وكيف تسرب اليها ذات ليلة وكان ما كان ..

وتعثر الحمار وكاد يقع ، ولكنه تمالك نفسه فى قوة . وفى نفس الوقت تعثر خيال فكرى أفندى السارح فى شىء خطر له حالا . فقد أحس باستنكار غاضب يجتاحه . معنى هذا أن الخطيئة ارتكبت فوق أرض التفتيش ، وصحيح أنه ليس مالك التفتيش ،

وليس أبدا حامى حمى الفضيلة فيه ، ولكن مجرد شعوره بهذا جعله يغضب وينهال على الحمار بالعصا الخيزران ضربا جزاء له على تعثره ، ولكنه وهو فى قمة انفعاله لم يفته أن يلاحظ أن اللقيط الذى عثروا عليه اليوم كامل النمو ، والترحيلة لها فى التفتيش ما لا يزيد عن الشهرين . هنا فقط كف فكرى أفندى عن ضرب الحمار ونخزه وأحس براحة داخلية تهب عليه من صدره ، الجريمة اذن لم تحدث على أرض التفتيش ، فالبنت قد جاءت وهى ليست بخير ، ثم لما تكامل الشر فى بطنها وضعته هكذا بلا ضوضاء فى سكون الليل ودون أن يشعر بها أحد . ثم خنقته حتى دون أن يكون هناك داع لخنقه .

يالها من عاهرة !

ثم لم تكتف بهذا وانما تحاملت على نفسها وسرحت مع الأنفار على خيوط الفجر حتى لا يتسرب انسان الى سرها .

يالها من جبارة !

ولكز وديع أفندى الحمار لكزة قوية وهو يمر بيده ليمسح العرق الذى تكاثر حول فمه وتساقط من طرف أنفه ، ويقول فى زئير خافت :

— أعوذ بالله !

٧

ارتفع نهيق الركوبة . ولم يكن نهيقها كأى نهيق . كان كل من بالتفتيش يعرفه وتستطيع أذنه أن تميزه من بين أصوات آلاف الحمير ، فكلهم يخاف ذلك النهيق ويعمل له ألف حساب .

وهذه المرة أيضا تضايق فكرى أفندى واغتاظ ، فذلك النهيق كان عيب الركوبة الوحيد فى نظره ، وكأن بينها وبين المقاولين والأنفار والخولة اتفاق . ما يكاد يخرج للمرور ليفاجئهم وهم عنه فى غفلة حتى تفاجئه الركوبة وتنهق ذلك النهيق العالى الذى يصل الى آخر الدنيا ويوقظ النومى فى مضاجعهم ، ويجعل كل شىء فى الغيط على أتم ما يرام وعلى استعداد مجهز لاستقباله .

حين ارتفع النهيق كان الركب قد بدأ يدخل فى الأرض المزروعة قطنا وقد غادر لتوه غيط القمح . كان الغيط لا آخر له بحيث يبهرك أن تعرف أن شخصا واحدا فقط هو الذى يملكه ، وبحيث تود فى الحال لو كنت أنت ذلك الشخص . وشكل الغيط المزروع يذكرك حتما بالجنة ، فوأنت سائر على المشاية ترى القناة التى بجوارها صحيح ، وترى عيدان القطن بكامل هيأتها ولوزها وأوراقها ، ولكن شجيرات القطن لا تلبث كلما بعدت أن تتداخل وتتداخل واذا بالتربيعة تبدو أمامك مجرد مستطيل أخضر . والأرض مقسمة الى ترابيع . والترابيع القريبة محدودة المعالم ، بين كل تربيعة وأخرى مصرف صغير ولكن الترابيع كلما بعدت تختفى

المصارف والفواصل حتى لا يعود الانسان يرى سوى مسطح واسع غير محدود من الظلام الأخضر الذى يضيئه عدد لا نهاية له من فوانيس أزهار القطن الصفراء .

ومن بعيد لاح خط الأنفار ، لا تكاد تميزه عن الخضرة المتكاثفة التى يغمق لونها ويغمق كلما بعدت حتى يستحيل الى ظلام تام ، لا تكاد تميزه الا بأعمدة الدخان المتصاعدة من الحفر التى يحرقون فيها أوراق القطن المصابة باللطع .

وأرهق الحمار نفسه كثيرا وهو يضم رئتيه لينهق بآخر ما يستطيع . ومع أن فكرى أفندى لا يقرأ كثيرا لأن القراءة تتعب عينيه ، وعيناه لا تستطيعان تمييز الحروف جيدا مهما قربهما من الأوراق ، الا أنه فى الغيط ثاقب النظر كالصقر . وهكذا ورغم نهيق حماره استطاع أن يلحظ أن الخولة يقومون فجأة من جلستهم فى الظل وراء الأنفار وترتفع خيزراتهم فى الهواء وتهوى على ظهور الأنفار أو عيدان القطن ضربا وطرقعة وأصواتهم تأتى صارخة من بعيد : وطى ياوله .. وطى يابنت .

تلك تمثيلية يعرفها فكرى أفندى تماما ومل من تكرارها . وما كاد موكبه يهل على (العمل) حتى اندفع أكثر من سائق من سائقى الأنفار يجرى (وتلك فى رأى فكرى أفندى تمثيلية قديمة أخرى) يجرى ليفوز بشرف امساك الركوبة لحضرة المأمور وهو يهبط عنها .

قال فكرى أفندى وهو يسحب منديله من تحت الطربوش ويجفف به عرقه وظهره :

— واد ياعرفه .

وعرفه ريس سواقى الأنفار ، أى ريس الترحيلة ، وهو الذى فاز بامساك لجام الحمار هذه المرة ، وهو الذى يفوز كل مرة ، قال :

— العواف ياحضرة المأمور .

واحتار المأمور أيرد التحية فيبدو وكأن (البلفة) قد دخلت عليه ، أم يتجاهلها ، فيبدو قليل الذوق ، وأيضا لم يفعل هـذه أو تلك ، فهو قد جاء لمهمة عليه انجازها . ولكى تبدو المسألة طبيعية كان عليه أن يسأل عرفه كما يسأله كل مرة :

— النضافة ازيها ؟

— ع السنجه عشرة ياسعادة البيه .

وتجاهل فكرى أفندى سروره باللقب ، وزغر له قائلا :

— وان لقيت لطعه ؟

فأمال عرفه رأسه ووضع كفه على عنقه وقال :

— برقبتى .

وقال فكرى أفندى بصوت لا يعرف سامعه ان كان جادا أم هازلا :

— يلعن أبوك على أبو رقبتك .

ولأمر ما كان يخيل لفكرى أفندى أن هؤلاء الناس يفرحون حقيقة حين يلعن آباءهم ويشتمهم ، بل لابد أنهم يحسون بنوع من الهيبة والفخر وكأنه يمنحهم رتبا وألقابا . اذ هى فى عرفهم لابد آيات ود وصداقة وتنازل ، تنازل منّه ، منه هو مالك هذا الملك

كله والآمر الناهى فيه . تلك (الأبعادية) أو (التفتيش) أو كما تسمى أحيانا (الدايرة) ، أكثر من ألفى فدان من أجود الأطيان ، بما عليها من ناس وبيوت وماكينات وبهائم ومحاصيل تحت تصرفه، هو السيد الأعلى لهـذا كله سيد العشرة الخـولة والباشكاتب والخمسة الكتبة والأسطوات والخفراء والأجـراء والفـلاحين والمزارعين . هو الذى يمكنه أن يعـز من يشاء ويرفد من يشاء ويحكم بالغرامة على من يشاء ، فى استطاعته أن ينقل الفلاح من عزبة لعزبة ، ويعطيه أو لا يعطيه أرضا يزرعها ، بل ويسـتطيع لو شاء أن يطرده نهائيا من التفتيش دون أن يراجعه أحد أو يجرؤ أحد على معارضته . فى استطاعته حتى أن يضرب لمن يشاء بالقلم أو باللكمية أو بالشلوت ، بل أحيانا يحبس ويرسل المتهم مخفورا الى المركز ، ولا راد لقضائه ، وما يرده هو الخوف . وهو لا يخاف الا من اثنين : رئيسه المفتش ، وصاحب الأبعادية . والمفتش يأتى للمرور كل شهر والمالك يأتى كل شهرين أو ثلاثة ، وباستثناء تلك الساعات القليلة التى يقضيانها فى التفتيش فهو دائما مالك هذا الملك كله ، ألا تبدو شتيمته حينئذ لنفر من الأنفار أو سائق من السائقين منحة وتنازلا ؟

الواقع أن مجرد مرور كل تلك الخواطر فى رأس فكرى أفندى كاد يثنيه عن عزمه ، اذ ، أيصح من رجل هذا شأنه الكبير أن يضيع وقته ويشغل نفسه بمهمة غريبة سخيفة ليست من قيمته كتلك المهمة التى جاء بشأنها ؟ ولكنه جاء فعلا ، ولن يخسر شيئا فان أحدا من

الأنفار أو السائقين لا يعلم بالسبب الحقيقى لمجيئه . تردد برهة ولكنه وجد نفسه يقول :

— الأنفار كلهم موجودين ياعرفه ؟

قال عرفه فى حماس :

— بالنفــر .

انت متأكد .

— علىّ الحرام بالثلاثة من بيتى كلهم موجودين .

ومع هذا لم يصدق فكرى أفندى فهؤلاء النــاس من رأيه يتمتعون بحظ وافر من قلة الدين والواحد منهم مستعد أن يقسم بالطلاق من أ[illegible] أن يكسب تعريفة ، وعلى هذا قال :

— طب عدهم .

وقال عرفه :

— حاضر .. أنا خدام .

ومضى يعدهم بصوت عال مرتفع ، وأثناء العد لا يفوته أن يرى همته وحرصه على مصلحة العمل فينهال على أى ظهر محنى أمامه بخيزرانته الرفيعة فى ضربة تمثيلية .

عد الريس عرفه الأنفار مرتين ، وفى كل مرة يؤكد للناظر بلهجة بدأ الشك والخوف يتسربان اليها أن العدد مضبوط وأن الأنفار كلهم يمسكون خطوطا ويعملون .

واستغرب فكرى أفندى واندهش . كلام الريس صحيح . ولكنه متأكد أن واحدة من هؤلاء الأنفار هى التى ولدت ذلك اللقيط فكيف يتفق هــذا مع وجودهم جميعا فى ذلك الطابور

المنحنى الطويل . لابد اذن أن الفاجرة غصبت على نفسها واشتغلت، ولكنها لن تفلت منه ، فمهما بالغت فى حرصها فستبدو آثار الولادة حتما عليها . كل ما عليه هو أن يمر عليهم أجمعين ويحاول أن يلتقط الدودة من بينهم ، المجرمة التى ولدت فى الليل وقضت على ابنها وجاءت هنا تحنى ظهرها وتعمل وتتلقى الضربات وكأنها ليست بشرا وكأنها جنية من الجنيات أو شيخة من المشايخ .

دخل فكرى أفندى فى التربيعة أمام صف الأنفار ومضى يقاوم الشمس بعينيه ويتوقف قليلا لدى كل امرأة أو بنت يتأملها ، العجوز يتركها والنصف يتوقف لديها ، والبنت يطيل فى ركنته عندها . ولأول مرة يدقق فكرى أفندى فى زى الغرابوة وملابسهم، ويعرف أن سراويل نسائهم طويلة جدا تصل الى الكعبين وتنتهى بذيل مكشكش ، ودائما ألوانها فاقعة .

تعدى فكرى أفندى منتصف خط الأنفار دون أن تستوقفه واحدة وكاد الخط ينتهى وهو لا يعثر على ضالته المنشودة . وفجأة لمح شيئا يبعث على الأمل ، ظهرا انثويا منحنيا ، هو الوحيد البادى عليه أنه ظهر أنثى ، رفيع من الوسط ، ينتهى بردفين عريضين بارزين ، ورأس هو الوحيد البادى عليه أنه رأس أنثى ، تتعصب بقمطة ملونة تظهر شعرا أسود لامعا غزيرا كشعور النساء .

وقال لنفسه : لابد أنها هى .. وطى يابنت .

قال الجملة الأخيرة وهو ينهال على الظهر المحنى فعلا ، ولا حاجة به الى انحناء آخر ، بضربة من خيزرانته ، ضربة قاسية

قاصمة تأوهت لها المنحنية ولم تتمالك نفسها فاعتدلت لتضع يدها على ظهرها المضروب وقد أفلتت منها شهقة مستغيثة . وحـدق المأمور فى وجهها المتقبض فى ألم ..

كان وجهها معافى سليما لا مرض أو ولادة فيه ، وعلامات الألم المرتسمة على ملامحها علامات ألم حـديث سببته ضربة العصا ولا يمكن أن تكون علامات ألم بايت سببته ولادة . وانتقل المأمور الى ظهر آخر ، ومن ظهر الى ظهر مضى يتفقد ويحملق ويتأكد . وانتهى خط الأنفار وغيظ فكرى أفندى قد بلغ مداه فهو قد خرج من استعراضه صفر اليدين وخابت فراسته .

وفجأة وجد فكرى أفندى نفسه يهدر فى الريس عرفة :

— طلع العمل من الأرض .. وخليهم كلهم يمروا واحد واحد قدامى .

وتجمد عرفة فى بله مؤقت ، ولم ينطلق الا على أثر شخطة أخرى من المأمور .

وبدا وكأن الأنفار قد فرحوا كثيرا بقرار خروجهم ، اذ هم على الأقل سيستريحون ولو لحظات قليلة من انحناءة ظهورهم العارمة فى قسوتها وحدتها . الانحناءة التى تستمر أكثر من عشر ساعات فى اليوم ، فرحة كبرى أن يستريح منها الانسان دقيقة .

اعتدل الأنفار ، ومدوا أيديهم جميعا وبلا استثناء تضغط على أماكن الألم فى سلاسلهم الفقرية . وحين أفاقوا من غيبوبة النشوة القصيرة التى اعترتهم وعرفوا بقرار المأمور ، ابتهجت له النساء والبنات كثيرا وراحت كل واحدة تمنى نفسها بألف لبلة وليلة

من الأحلام ، معتقدة أن اختيار المأمور حتما سيقع عليها ، وستقضى أحلى الساعات وهى تخطر بخفة كخادمة فى بيته حاملة الأطباق أو مناولة القلة ، حيث الظل الوارف ، والجلوس ، والطعام الكثير ، وحيث لا عصى ولا خيزرانات أو سواقون . أما الرجال فانهم مضوا غير مبالين كالمحكوم عليهم بسجن طويل ..

ومر الأنفار أمام المأمور . وراح فكرى أفندى يحملق فى الوجوه .. الكبيرة والصغيرة .. العجوزة والصبية .. القبيحة والمليحة ، الغبية والمريضة ،ويتفرس فى الأجساد ، المشوقة والمحنية، الأجساد التى تعرج والتى تقفز ، الجافة والنضرة ، الأجساد التى تودع الحياة والتى تستقبلها . ولم يجد أبدا فى جسد من الأجساد ولا فى وجه من الوجوه واحدة من المحتمل أن تكون هى الآثمة الفاعلة .

وهدر فكرى أفندى يأمر عرفة بارجاع الأنفار الى الأرض ويلعن آباءهم وأباه ، بجد وحقد هذه المرة .

وبينما كان يضع قدمه فى الركاب ويستعد للقفزة التى تصعده فوق ظهر الركوبة كان يعتصر عقله بين مستحيلين :

فمستحيل أن تكون أم اللقيط من غير الترحيلة .

ومستحيل أن تكون هذه الأم بين الأنفار الذين تفحصهم لتوه.

٨

وفى طريق عودته الى العـزبة من نفس المشاية التى جـاء عليها كان الأسطى محمد لا يزال وقد استحلى القعدة يمد رجليه فى الماء ويلعب فيها كالأطفال بأقدامه . وحين رأى الموكب هالا من بعيد هب واقفا من جلسته كالملسوع وأسرع ينضم اليه . ولم يكن فى حاجة لسؤال ليدرك أن الفشل كان حليف المأمور . كل ما فى الأمر أنه ظل ساكتا برهة يلهث مع اللاهثين ويتحاشى سحب الغبار ثم قال بتهتهته العجوزة المتحمسة :

— اعمل بقى زى ما عمل سيدنا عمر ياحضرة المأمور .

والانسان فى لحظات يأسه يتعلق بالقشاية ، وجذب فكرى أفندى لجام الركوبة قليلا ليبطىء من ركضها ، وحين حاذاه الأسطى محمد سأله :

— سيدنا عمر عمل ايه ياراجل يابو عقل فارغ .

وقصة طويلة هى التى حكاها الأسطى العجوز ، قصة استغرقت كل الطريق الى العزبة الكبيرة . بدأت بأن سيدنا عمر رضى الله عنه كان يتجول فى أنحاء المدينة متخفيا ليتفقد شئون الرعية ، وأثناء تجواله عثر على جثة شاب فى ريعان الشباب مقتولا بطعنة خنجر . وحاول سيدنا عمر أن يعثر على قاتله بلا جدوى ، وأخيرا وحين يئس قال له شيخ حكيم : اذا أردت العثور على القاتل فانتظر تسعة أشهر وسوف تجده بين يديك . ولم يأخذ سيدنا عمر كلام الشيخ

على محمل جاد ، ولكن بعد تسعة أشهر بالضبط سرت شائعة فى المدينة تقول ان بنت فلان قد وضعت طفلا دون أن تتزوج أو يقربها انس . وحينئذ قال الشيخ العجوز لسيدنا عمر : هاك القاتلة .. التى ولدت حتما هى التى قتلت . قال سيدنا عمر : كيف . قال الشيخ : لابد أن الشاب اعتدى عليها فقتلته .

ومع أن الحكاية أعجبت فكرى أفندى وكادت تخفف من غلوائه الا أنها لم يكن لها دخل فيما هو فيه ، مجرد حكاية أخرى من حكايات الأسطى محمد الكثير الحكاوى الذى يؤلف لكل شيء حكاية وكأن مشاكل الدنيا تحلها الحواديت .

كل الذى حدث أنه كان قد يئس تماما من اشباع حب استطلاعه والعثور على أم اللقيط ، وصمم أن يلقى الأمر من وراء اهتمامه ويبلغ المركز والمركز يتصرف كما يحلو له . وزيادة فى الاحتياط أملى على مسيحة أفندى الباشكاتب صيغة البلاغ وراعى فى اختيار كلماته كل الدقة حتى يخلى طرفه وطرف التفتيش من أية مسئولية .

وجاء البوليس .

وجاءت النيابة .

وجاء مفتش الصحة .

وأخليت لهم مبانى الادارة ، واحتل وكيل النيابة حجرة المأمور ، وتناثر عساكر البوليس يشربون الجوزة ويحتسون الشاى حول المبنى ، ووقف مخبر مكشوف يتلكأ عند دكان جنيدى ، أما سكان

العزبة فقد وقفوا من بعيد يرقبون ما يحدث ، ويطلقون الاشاعات، ويتهامسون .

أما فكرى أفندى المأمور فقد كان مشغولا حقا ، ذلك أنه رأى أن ينتهز الفرصة ويعد لرجال الأمر والنهى فى المركز وليمة حافلة فمصالحه عندهم كثيرة وما أقل ما يأتون الى التفتيش . وعلى هذا قطع المسافة بين بيته عند رأس العزبة الكبيرة وبين مبانى الادارة عشرات المرات يشرف بنفسه على الديك الرومى ويتذوق الخبز الذى أعد فى بيته خصيصا للعزومة . وكان أهالى العزبة حين يرمقونه فى انبهار وهو داخل أو خارج من مبنى الادارة يشعر هو بسعادة لا حد لها اذ هو الوحيد بينهم جميعا الذى له حق الكلام مع المأمور والبيه الوكيل والسلام على مفتش الصحة .

وابتدأ التحقيق ..

وجىء بكل امرأة وبنت من نساء الترحيلة بعد لكزها مرات لكى تخاف وتعترف ، وجىء كذلك بنبوية وهى متعلقة بسبت البيض لا تريد تركه وفيه كما تقول كل رسمالها ، وسئل عبد المطلب الخفير والأسطى محمد .

وانتهى التحقيق ، وثبت أن اللقيط مخنوق وقيدت الجريمة ضد مجهول ، وصرحت النيابة بدفن الجثة الصغيرة فى جبانة التفتيش ، وتطوع عبد المطلب بتكفينه وتجهيزه ودفنه .

وأكل رجال الأمر والنهى الغداء وقالوا سلاما .

وانتهى اليوم .

٩

انتهى اليوم ليسلم التفتيش ، ادارة ، وفلاحين وموظفين الى حيرة عظمى ، فهم ما ان عرفوا حكاية اللقيط حتى أراحوا أنفسهم وقالوا : الترحيلة ، ولكن ها هى ذى الحقائق تثبت لهم أن الترحيلة بريئة وأن الفاعلة ليست منهم . حتى فكرى أفندى المأمور الذى كان مصرا على أن الفاعلة واحدة من الترحيلة بدأ الشك يتسرب الى اصراره ، ومع هذا فكلما رأى أنفارهم سارحين الى الغيط أو مروحين ، رغما عنه تروح عينه تبحث بلا وعى عن النساء فى الأنفار عله يلمح على احداهن فجأة علامات الفجر والحرام . وكان أول الأمر يمتعض ويجفل ، ولكنه بمضى الأيام أصبحت نوازع غريبة تتحرك فيه كلما رأى بنتا أو امرأة من بنات الترحيلة، بل وجد نفسه ذات مرة يمزح مع واحدة منهن ، ومرة ادعى لنفسه وللناس أنه يزغد بنتا فى صدرها ليزجرها ، وارتطمت يده طبعا بثديها ، وروع قليلا حين وجده بكرا مكتنزا جامدا كالكرة الشراب .

أما البنت فقد دهش حين رأى وجهها يبهت فجأة وكأنما سحبت منه كل دمائه ، ثم يغمق لونه فى التو وتحمر وجنتاها وتجفل وكأنها خجلت وغضبت .. يا ألطاف الله . أممكن أن نساء الترحيلة تخجل وتغضب هى الأخرى كبقية خلق الله ؟!

أما بقية الناس فى التفتيش ، فالمسألة لم تمر هكذا بسهولة .

وكأنك ألقيت بحجر ضخم فى ماء راكد آسن . بدأت الاتهامات والشكوك تنهال من كل صوب ، حتى لم تسلم واحدة من نساء العزبة الكبيرة من الشك فى أمرها مع علمهم التـام أنهن جميعا بريئات ، ولكن لابد لكل خطيئة من خاطئة ، ولكل جريمة من فاعل ، ولابد أن يكون لتلك الجريمة فاعلة ، والجريمة عرفوها ، ترى من تكون الفاعلة ؟

بل أكثر من هذا بدأ الشك يزحف من بيوت الفلاحين المنخفضة الى بيوت الموظفين العالية . فبدأ الفأر يلعب فى عب مسيحة أفندى الباشكاتب ، وبدأ يخاف أن يكون المحظور قد وقع . والحقيقة أنه كان خائفا دائما أن يقع المحظور ، بل أكثر من هـذا هـو دائم الخوف من المحظور وغير المحظور .

مسيحة أفندى أرسخ الموظفين جميعا أقداما فى التفتيش اذ هو قد تربى فيه من أيام البرنسيسة ، وتدرج من نفر بالأجرة يرسله أبوه ليتعلم مبادىء الحساب والقراءة والكتابة عند المعلم قيصر الباشكاتب القديم كاهن الحسابات الأكبر الذى يعرف أسرارها وعلمها . يرسله أبوه حيث يجلس تحت قدمى المعلم قيصر فى وجل وتقدير ، منتظرا كالكلب الأمين أن يلقى اليه معلمه بين الحـين والحين بحسبة من الحسب فيتلقفها مسيحة الفتى واجف القلب خائفـا خوف الموت أن يخطىء فى حلها فيغضب منه الباشكاتب ويضن عليه بأسرار الحرفة ، ومن أجل هذا فهو الأطوع له من بنانه ، يخدم فى منزله ويذهب الى البندر البعيد ويشترى حاجياته ويحافظ على زجاجة الزبيب أكثر من محافظته على عينه ، واذا

ما همهم المعلم قيصر لينطق تفتحت آذانه كلها لكلامه ، واذا ما تكلم لا يصغى له وانما الأدق أنه يمد أصابع نهمة من أذنيه ليلتقط كل كلمة تخرج من فمه ويدسها فى رأسه بسرعة مخافة أن تضيع أو تتبدد ، اذ من حساباته وكلماته سينتقل مسيحة من طبقة الى طبقة ومن فتى مآله الزراعة والعمل بالفأس حتما الى أفندى يجلس على مكتب ويعمل بذلك الشيء الصغير الساحر : القلم .

كل كلمة يقولها المعلم قيصر كانت تثبت فى عقله ويتشبع بها كالصبغة الأصلية التى لا تبهت ، كل كلمة حتى النـوادر التى يحكيها . وأهـم نادرة تلك التى حكاها له المرحوم ذات مساء فأصبحت بوصلة حياته . قال له المعلم قيصر : الاتنين فى اتنين بكام يابنى يامسيحة ، فأجاب مسيحة كالتلميذ الشاطر : بأربعة يامعلمى .

ولدهشته أجابه المعلم : آه .. عمرك ما ح تبقى باشـكاتب يامسيحة . فحزن مسيحة جدا ، وسأل معلمه عن سبب هذا وهو مغموم ، فقال له المعلم تلك الحكاية : أراد أحد أصحاب الأرض أن يعين كاتبا عنده فأعلن هذا للناس وصار يأتيه طلاب الوظيفة من مشارق الدنيا ومغاربها ويقابلهم واحدا واحدا . وكان لا يسألهم أبدا عن مؤهلاتهم أو أسمائهم أو الأماكن التى عملوا فيها ، كان فقط يسأل الواحد منهم ذلك السؤال الذى سأله اياه : الاثنين فى اثنين بكام .

وكلما سأل أحدهم ذلك السؤال وقال له على الفور : أربعة ، كان يقول له : اتفضل من غير مطرود . ظل هذا يحدث الى أن دخل عليه رجل كبير فى السن يحمل تحت ابطه دفترا وفى يده جراب

فيه دواية حبر وريشة كما كانت العادة فى الكتبة أيام زمان . وحين أصبح الرجل أمام صاحب الأرض سأله السؤال المعتاد : الاثنين فى اثنين بكام ؟ فقال له الرجـل : الاثنين فى اثنين ؟ قال : نعم . قال له : استنى ياسيدى على . أيوه أقول لحضرتك .

وجلس ، وفتح الدفتر الذى معه وأخرج الدواية والريشة وكتب على الورق أمامه : اثنين فى اثنين ، يساوى أربعة . ثم قال لصاحب الأرض : أيوه ياسيدى . الاثنين فى اثنين بأربعة ما عدا السهو والخطأ .

حينئذ قال صاحب الأرض : بس . انت اللى تاخد الوظيفة . مبروكة عليك .. الحرص والحذر وعدم ترك شىء للصدف ذلك ما علمه اياه المعلم قيصر قدست روحه ، وذلك ما جعله يخلفه فى وظيفته حين مات ، وما جعله يعمل فى التفتيش أكثر من أربعين عاما ماضيا على تلك القاعدة بلاسهو أو خطأ ، يقبل عليه مآمير ومفتشون ويذهبون ، وتباع الأرض وتشترى وهو وحده الثابت الخالد ، قابعا وراء مكتبه الضخم وعلى يمينه أكوام الدفاتر أقل دفتر منها يزن عشرة كيلو جرامات ، وعلى يساره أكوام . وهو العالم الخبير بكل احوال التفتيش وتاريخه ، يعرف كل فلاح بالاسـم والأب والأم ، ويتذكر السلفة التى أخذها فلان حتى قبل أن يفتح الدفتر، يعامل الفلاحين رغم عشرته الطويلة لهم بأبلغ الحذر ويختلط بهم ويضحك معهم ويستشيرونه فى أحوالهم وأخص خصائصهم ولكنه دائما مسيحة أفندى الباشكاتب .

واللقيط جعل الفأر يلعب فى عبه لأنه أدرى الناس بالاشاعات

التى تروج فى التفتيش وخاصة تلك التى تروج عنه وعن عائلته . ومسيحة أفندى كان له ثلاثة أولاد اثنان منهم فى ثانوى والثالث الأكبر أخرجه من المدارس وسعى حتى جعله يعمل كاتبا فى عزبة قريبة . وكانت له ابنة واحدة ، جعلها تأخذ الابتدائية ثم أقعدها فى البيت تنتظر العريس ، والعرسـان قليلون ، اذ من أين يعلم العرسان بهذه الغادة الجالسة تنتظرهم فى ذلك المكان النائى الكائن على شمال الدنيا ؟ وحتى كونها أجمل بنت فى التفتيش لم يشفع لها . فبالمقارنة الى بنات الفلاحين ، كانت لنده بيضاء كالقطن المندوف . لونها وحده كان كافيا ليجعلها ملكة جمال ، مع أنها كانت حين تسافر الى أقاربها فى شبرا مصر مع أمها كانت الأم تسمع بأذنها همسات قريباتها والجارات بأن أنفها كبير وفمها أوسع قليلا مما يجب وقدها غير ممشوق ، وشعرها خشن أكرت .

ولكن هذا يحدث فى شبرا مصر ، أما فى التفتيش فهى الجميلة بلا منازع . الجميلة الى الدرجة التى كان الشاب من شباب الفلاحين يدق قلبه بالانفعال حين يلمحها من بعيد ، تطل من شباك بيتهم ، أو تتمشى مع عائلتها وعائلة المأمور على الترعة .

والمشكلة فى عائلة المأمور هذه . فزوجته الست أم صفوت فلاحة أو هكذا تبدو حين تتحدث مع الست عفيفة زوجة الباشكاتب التى تربت فى مصر وتعلمت وتمدينت . ولأن الست أم صفوت كانت زوجة الرئيس فقد كانت الست عفيفة على الدوام تحرجها وتظهر لها مدى فلحها وجهلها ، وتفعل هذا بلباقة شبرا وحـذر زوجها مسيحة . وكانت أم صفوت تغضب وتركب حينئذ رأسها

وتتحدى وتقضى الساعات الطوال تلعن عفيفة أمام نساء الفلاحين وتنال منها . والمشكلة أيضا ليست فى المأمور وعائلته ، المشكلة فى ابنه الوحيد صفوت . كان فى العشرين من عمره راسبا لثالث مرة فى التوجيهية ، مدللا من أبيه وأمه والفلاحين وكل قاطن فى التفتيش. طول النهار معلقا البندقية الخرطوش فى كتفه ، مرتديا جلبابا بلديا أبيض مثل الجلابيب التى يرتديها الفلاحون كنوع من العياقة ، وبرنيطة صفراء ومنظارا أسود ومنقبا عن اليمام يصطاده ، ولا يحلو له الا صيد اليمام . وكان لا يحلو له الصيد الا على الترعة المارة من أمام بيت الباشكاتب . والعلة يعرفها الجميع ؛ فمن أعوام مضت والناس تتحدث عن الصائد واليمام ، وعن سى صفوت والست لنده . والغرام المشبوب الذى تحده الترعة ، ويحده عدم وجود الفرصة واختلاف الدين ، ويحتبس فى صدر صفوت ، وينغلق عليه صدر لنده بالذات ، ولكنه أحيانا يطل بذراعها حين ترتفع وكأنها تمسك حديد النافذة ويعنى ارتفاعها تحية مستخفية خجلة ، بصورة يقولون ان لنده تحتفظ بها فى ذلك القلب الذهبى الذى يتدلى من عنقها المرمرى الأبيض ، بخطابات يقولون انها تتبادل عن طريق محبوب . ومحبوب هو بوسطجى التفتيش اذ لم يكن للتفتيش مكتب بريد ، محبوب هو الذى يذهب الى محطة قطار الدلتا الكائن عند أول التفتيش ، وحين يجىء القطار الصغير المتدحرج يتشعبط هو فى النافذة المخصصة للبريد ، ويعطى للمستخدم ما معه من خطابات مصلحية وأهلية ويتسلم منه الوارد من الخطابات . وكان محبوب قصيرا جدا . لا يكاد يبلغ طوله طول الأطفال ولعله

لهذا كان يسبق الناس ولا يمل من التنكيت على نفسه . كان صغيرا وملامحه صغيرة وساقه كانت لا تتعدى الشبر ، وفى نفس الوقت أغرب بوسطجى ، اذ لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة ، ومع هذا ومن قلة أولئك الذين يأتى لهم خطابات فى التفتيش كان يعرف بطول المران الخطاب القادم من المنصورة للمأمور ، من ذلك المكتوب بالقلم الكوبيا وبخط مائل القادم من الجعفرية من قريب الشيخ شعبان له .

وهكذا كان محبوب يوزع خطاباته ، يعطى لمسيحة أفندى الخطابات المصلحية ويوزع البقية على أصحابها دون أن يخطىء فى شخص أو عنوان . حتى الحقيبة التى كان يحمل فيها الخطابات كانت صغيرة جلدها كالح مجعد كجلد وجهه . ومحبوب كان متزوجا من زكية ، واحدة من أضخم وأطول نساء التفتيش . وكان الرجال حين لا يجدون شيئا يفعلونه يكتفون محبوبا ويحاولون اجباره على أن يعترف لهم كيف ينام معها . ومحبوب يستغيث ، والرجال يضحكون لاستغاثته واعترافاته . وأغرب شىء أن زكية كانت على عكس زوجها تجيد القراءة والكتابة ، حتى أنها الوحيدة من بين نساء التفتيش التى كانت تستطيع قراءة الجرنال . والجرنال الوحيد الذى كان يأتى الى التفتيش كان هو المقطم . ولا يدرى أحد لم المقطم بالذات : ربما لأن الادارة فى مصر هى المشتركة فيه وهى التى تختار ، وربما لأن المقطم كان يهتم بنشر الأخبار الزراعية أكثر من غيره ، وربما لأن أصحابه كانوا هم الآخرين خواجات .

وكانت زكية مدمنة قراءة الجرنال ، حتى أنها كانت تعترض

طريق زوجها وهو قادم من المحطة ، وتنزله من فوق الحمار بالقوة وتغتصب منه الجرنال ولا تعطيه اياه الا بعد فراغها تماما منه . ومحبوب واقف عاجز ، يخاف منها أكثر مما يخاف لو تأخر عن المأمور ، فهو يستطيع القاء عبء التأخير على قطار الدلتا الذى ليس له مواعيد ، أما زكية فأنى له أمامها بالقدرة على اختــلاق المعاذير ، والعزبة التى يسكن واياها فيها تقع قبل العزبة الكبيرة حيث الادارة ، وهى على الدوام تنتظره وتقطع عليه الطريق ؟

كانوا يقولون ان الخطابات يتبادلها صفوت ولنده عن طريق محبوب ، تعطيه لنده الخطاب وبدلا من أن يذهب به لقطار الدلتا يهرول به الى حيث تدوى طلقات بندقية صفوت ولو كانت تدوى عند آخر التفتيش ، وله الحلاوة واليمام والبقشيش .

كان خبر هذا كله عند مسيحة أفندى ، وكم من مرة أوقف محبوب وفتشه مدعيا أنه يبحث عن خطاب ، وكل مرة لا يجــد شيئا فى حقيبة محبوب ، ولا حتى فى جيوبه حين يصر على تفتيش الجيوب .

واليوم وبعد هذا الحادث الغريب ، لعب الفأر فى عب مسيحة أفندى . ولم يكن وقت انصرافه من المكتب قد حان ، مع أنه ليست هناك ساعات عمل محدودة الا أنه تعود أن يبقى فى المكتب الى وقت الغــداء . ولكنه يومها قام وغادر المكتب والادارة وعبر القنطرة الحجرية وتوجه الى بيته القائم على رأس العزبة ، يتلقى تحيات الفلاحين بغمغمة لا يفتح فيها فمه ، ومع هذا ، وفيما هو فيه لا ينسى أبدا أن يضم ذيل جلبابه ويرفعه مخافة أن تعلق به



قذارات الطريق . كان فى زيه الدائم : الجلباب الأفرنجى الأبيض الذى ليس له ياقة ، والبالطو الأبيض والطربوش ، جميعها بيضاء ولكنك لا تلمح فيها بقعة ، كثيرا ما عيرت أم صفوت زوجها المأمور حين يأتى لها ببنطلونه الأصفر متسخا حاملا فى ثنية ذيله الطين والحصى والتراب ، تعيره وتقول له انه لا يساوى قلامة ظفر مسيحة أفنـدى الذى ما رأته أبدا وعلى ملابسه ذرة تراب . بل تبلغ بمسيحة أفندى شدة حرصه على ملابسه أنه حين يسافر ويضطر اضطرارا الى ارتداء البدلة الوحيدة التى يملكها والتى تبدو على الدوام جديدةوكأنها بنت العام مع أنعمرها لايقل عنالعشرة أعوام بأى حال ، يبلغ حرصه درجة أن يضع منديلين حول ياقتها مخافة أن يتسرب عرق قفاه اليها اذا اكتفى بوضع منديل واحد .

بقامة قصيرة منحنية ، وبوجه شاحب (اذ هو الوحيـد بين سكان التفتيش الذى يعمل معظم نهاره فى ظل المكتب) ، وبذقن خضراء كثة ، وبملابس ملمومة نظيفة ارتقى مسيحة أفندىالدرجات القلائل التى تؤدى الى باب بيته . والباب مفتوح ، فلا تغلق أبواب الدور فى الأرياف الا لماما ، ودخل . وكان لمسيحة أفندى ضجة دخول معتادة ، ما أن يطأ عتبة الباب حتى يبدأ أسئلته واستفساراته وتعليقاته . هيه .. انتـو فين .. بتعملوا ايه .. بعت لكم الواد بالخضار .. واتأخرتم فى الغدا ليه .. اللحمة كانت عجوزة والا ايه .. دى كويسه .. وانتى مالك يالنده .. ضرسك تاعبك والا ايه ..

يقول هذا وهو يهز رأسه هزات من يبحث بأنفه عن شىء ، وينقب بعينيه الرماديتين عما خلف كل شىء . ولكنه هـذه المرة

دخل صامتا واجما . وفى الصالة المضيئة أكثر من اللازم كانت عفيفة زوجته جالسة أمام طبلية صغيرة ومعها أم ابراهيم زوجة فقى التفتيش ، ودميان سلفها أخو مسيحة أفندى ، وكان الثلاثة يصنعون (شعرية) . ودميان يمسك العجينة ويفتلها بيد وبيده الأخرى كان يقرأ الفنجال لأم ابراهيم ويقول لها : ح تشوفى خير بعد نقطتين قولى يارب .

وكاد مسيحة أفندى ينهر أخاه . ولم تكن هذه أيضا عادته ، فهو يعرف مثلما يعرف كل الناس أن أخاه معتوه ، وأن عقله يبدو أنه قد كف عن النمو مذ كان طفلا ، فأصبح له جسد رجل قصير صغير كأخيه فى الخامسة والثلاثين ، وعقل طفل فى العاشرة ، وذقن سوداء كثة كفرشة الملابس لا يحلقها الا كل حين وحين . جلبابه الكزمير لم يتغير أبدا . وطاقيته ذات الحائط والمصنوعة من نفس قماش الجلباب على رأسه عمره ما خلعها . وعمله الخدمة فى بيت أخيه ، ينظف النحاس ، ويقيس الدجاج ، ويعلم أرجل الكتاكيت حتى لا تتوه مع كتاكيت الجيران ، ويغسل الملابس ويحضر الطلبات من الدكان ويرعى الأولاد ويمسح أحذيتهم ، ويفعل هذا كله وهو يحيا فى ملكوت طفولى من صنعه . يقابلك فى منتصف الطريق فتقول له : ازيك ياخواجة دميان . فيوقفك قائلا : الله يسلمك ، ثم يرفع وجهه الى السماء وكأنه يقرأ ما كتب لك ، ويبلل سبابته وابهامه بلعابه ويضعهما فوق ظهر يده اليسرى ، ثم يرفعهما ويقول لك : انشاء الله سعيد . لعبة كبيرة للأطفال ، ولعبة صغيرة للرجال ، ولعبة رجالى للنساء . وكل ما كان يهم النساء ، وأحيانا الرجال ،

هو هل دميان ينفع النساء أم لا ينفعهم ، بعضهن يقلن ان الست عفيفة لا تستخبى عليه وتعامله كصبى حريم ، وبعضهم يقول : لا ، ان ذقنه الكثة السوداء خير دليل على رجولته ، ويسألونه : لماذا لم تتزوج يادميان ، فيضحك ضحكته الغريبة التى تبدو وكأن رجلا يحاول أن يقلد ضحكة الأطفال ويقول : الهى ربنا يخليك . حتى لقد بلغ العبث به الى حـد أن بعضهم كان يطلب منه أن يسلم فكان يقول لهم : أنا مسلم وموحد بالله . ويقرأ الفاتحة وآية الكرسى ، ورغم هذا فقد كان هناك رأى يقول ان دميان خبيث ولكنه يستعبط . المحرج فى الأمر أن دميان كان شـقيق مسيحة أفندى الباشكاتب ، وأن تسخر من شقيق الباشكاتب أمر محرج، أو أحيانا أمر مبهج وكأن الفلاحين يبهجهم أنهم يستطيعون أن يسخروا من الادارة فى مواجهتها حين يسخرون بدميان .

عسعس مسيحة أفندى بعينيه فى الصالة والحجرة القريبـة المفتوحة ، ولكنه لم يلمح لنده . وأخيرا وحين لم يجد بدا سأل عنها زوجته فقالت له : تعبانه شوية .. وهب فيها مسيحة أفندى وكأنه فوجىء . تعبانه ليه .. مالها .. وماقولتليش ليه.. دى نسوان ايه دى .. وهى فين .

قالت له عفيفة انها راقدة على فراشهما . وبخطواته المتدحرجة وصل مسيحة أفندى حجرة النوم . حجرة نوم عتيقة بالية بالغة القدم . نفس (جهاز) عفيفة الذى دخلت به من أعوام كثيرة مضت الدولاب بلا ضلف ، والسرير جددت ألواحه مرات ، وعمدانه عليها بيض ذباب أسود متجمد ، والناموسية معلقة من ثلاثة نواح فقط

والرابعة مقطوعة . كانت الناموسية مسدلة ، وحتى قبل أن يرفعها قال والفأر قد بدأ يزداد لعبا فى عبه :

— مالك يالنده ..

ووجدها نائمة . وحسب أنها تتناوم وازداد قلبه اضطرابا ، ورفع الناموسية وواجهها . كان شعرها الأصفر المجعد الذى مارآه أحد الا مرتبا وأنيقا ومعتنى به وكأنما تدرك صاحبته بغريزاتها خشونته فتحاول باستمرار أن تجعله يبدو حريريا ناعما . كان شعرها منكوشا ، وخصل منه تغطى جبهتها ، وعيناها منتفختان قليلا وكأنما انتهت صاحبتها من نوبة بكاء .

سألها أبوها عما بها ، فقالت له : عندى مغص . ولأمر ما ، ربما من الطريقة التى قالتها بها ، ربما من مرآها بشعرها هذا وعينيها المنتفختى الجفون ، لأمر ما أحس مسيحة أفندى فجأة وبشكل قاطع أن بنته لنده هذه لابد أن تكون هى التى ارتكبت جريمة الصباح . احساس دفعه لأن يتوقف عن استرساله فى الكلام، ويحدق فيها وكأنما يراها وكأنها ليست ابنته ، وكأنها أنثى داعرة ، لأول مرة فى حياته . وبين شكه فى هذا ويقينه من أنها ابنته ، راح مسيحة أفندى يمسحها بعينيه الضيقتين ويتحسس يدها وبطنها مدعيا أنه يسألها عما بها ، وبطنها بالذات ، لم تكن له ليونة بطون الوالدات ولكنه كان يوجعها .

الشك لم يكن مسيحة أفندى قد أحسه أبدا الا تجاه الآخرين، تجاه الفلاحين والمآمير والادارة وكل الناس ، لم يكن أبدا قد أحسه تجاه نفسه أو من هم فى حكم نفسه .. تجاه عائلته .. تجاه

ابنته لنده بالذات . حياتها علنية أمامه وأمام أمها وأمام الناس ، وحتى اشاعة رسائل العيون والنظرات والاشـارات بينها وبين صفوت تكاد تكون علنية هى الأخرى ، وحياتها العلنية هذه هى كل حياتها ، فهل من الممكن أن تكون لها حياة أخرى ، حياة تزاولها مع صفوت ابن المأمور فى الظلام ؟ ليت الأمر جاء على شكل أسئلة حيرى تريد الاجابة ، الأمر جاء على شكل حمى داخلية اجتاحت مسيحة أفندى دون أن يكون فى استطاعته النطق أو التنفيس . لنده مخصها قد يكون حقيقيا وقد يكون حجة وستارا ، وزوجته عفيفة قد تكون على عهده بها كثيرة الرغى واللت والتعليق ولكنها رفيقة عمره الوفية الأمينة ، وقد لا تكون كذلك ، قد تكون هى المتسترة على بنتها ، بل وما أدراه أنها لا تتستر أيضا على نفسها ..

لم يعد فى وسع مسيحة أفندى أن يبقى بالحجرة فقد أحس أنه يختنق وأن ليس باستطاعته الكلام . غادرها الى الصالة حيث الشعرية والمجتمعون حولها . رأته عفيفة متغير السحنة فسألته عما به وهمهم وغمغم ولم تفهم مما قاله حرفا . نادى على دميان أن يتبعه وغادر البيت وتلكأ ليلحقه . وشهد جسر الترعة الممتد أمام البيت أغرب حوار يدور بين الأخوين . الدنيا حارة لافحة ، والشمس فى كبد السماء تتوهج ملايين أفرانها وترسل على الكون حممها ، ومسيحة أفندى سائر وبجواره دميان يحاول لأول مرة فى حياته أن يحدثه حديثا جديا ، حديث الأخ لأخيه ، يحاول أن يسأله ان كان قد لاحظ شيئا أو فطن الى شىء ، يسأله عن صفوت ولنده ، والحرام والحلال ، ودميان سادر فى رواية غريبة عن دجاجة كل يوم

يقيسها فيجد فيها بيضة ولكنها لا تبيضها ، مؤكدا أن البيضة لابد فيها سر ، وقد تكون مفتاح كنز ما ، خائفا ان هم ذبحوا الدجاجة أن يذهب ما فيها من كنز وسر ، وان همـــوا تركوها أن يسرقها الجـــيران .

وأخيرا لم يعد مسيحة يحتمل ، زجـــره بعنف وسبه وتركه ومضى . ووقف دميان حائرا لبعض الوقت وقد توقف عن استرساله ثم ما لبث أن أدرك أن أخاه سبه وشتمه ، ويبدو أن تلك أول مرة كان يحدث فيها هذا ، اذ ما لبث أن راح يبكى وقد خلع طاقيته يجفف بها دموعه ، وبدت رأسه صلعاء لامعة تقدح شررا تحت الشمس .

١٠

فى نفس ذلك الوقت كان صفوت ابن المأمور متكئا فى شبه غيبوبة على مسند الكنبة الوحيدة فى بيت أحمـد سلطان كاتب الأنفار فى التفتيش . وتلك كانت جلسة صفوت المختارة . حين ينتهى أحمد من عمله ويؤوب الى بيته ، فيضطجع الاثنان أحيانا حول (الجوزة) ، وأحيانا حول امرأة وأحيانا حول فنجال . أحمد سلطان هو الأعزب الوحيد بين موظفى التفتيش ، وهو أيضا الوحيد الذى يقطن بمفرده فى بيته الملاصق لبيت مسيحة أفندى . ومن بين الموظفين جميعا فان أحمد سلطان هو الوحيـد القريب الى قلب صفوت . كان شابا مثله وأهم من هذا كان أكبر منـه فى السن والتجربة والمعرفة الأكيدة بكل كبيرة وصغيرة مما يحدث خلف دور التفتيش . لم تكن صداقة بالمعنى المفهوم هى التى تجمعهما فأحمد سلطان فى معاملته لصفوت لا ينسى أبدا أنه ابن المأمور رئيسه ورئيس التفتيش ، وفى معاملة صفوت لأحمد حد معين من التحفظ ، فأحمد هذا لا يجيد سوى القراءة والكتابة والله أعلم كيف وصل الى وظيفته تلك ، شتان بينه وبين صفوت الذى يستعد لدخول الجامعة واكمال تعليمه فى القـاهرة . ولكن — مع كل هـذه الاعتبارات — فتآلفهما مضرب الأمثال ، وأيضا مبعث شقاء فكرى أفندى المأمور الذى كان لايطمئن أبدا الى أحمد سلطان، ولم يفلح زجره ولا حتى الشجار العنيف فى فصم هذه العلاقة .

كان صفوت متكئا على مسند الكنبة يتبادل هو وأحمد سلطان سيجارة ملغمة ، يتناوبان أخذ أنفاسها وهما حريصـان فى نفس الوقت على ابقاء طفيتها عالقة بالسيجارة ، وكأنما لو وقعت الطفية ذهب المزاج . وكان ثمة حديث يدور . وأهم خبر فى ذلك اليوم كان هو حادث اللقيط . وطبعا كان الحديث يدور حوله .

والواقع أن ما كان يدور لم يكن حديثا بالمعنى المفهوم . كان صفوت فى قمة انفعاله لمعرفة علاقة أحمد سلطان باللقيط ، وكأن قد ثبت لديه بطريقة قاطعة أن بينهما علاقة ولم يبق الا أن يعرف كنهها . ولكنه كان لا يريد أن يبدو فى عين أحمد سلطان كالطفل المحب للاستطلاع . كان يريد أن يجعله يعتقد أن أسئلته انما هى أسئلة رجل مجرب لرجل مجرب . ولعل هذا هو السبب فى طريقة جلوسه على الكنبة حيث كعى كعية مجرب ذكى خبير ، ولعـله أيضا السبب فى تلك الابتسامة التى قصد منها أن يقول لمحدثه : أنا كاشفك قوى ، بل حتى مداعبة شاربه ، الشارب الباهت الذى لم يتعد عمره العام الواحد والذى تعمد صاحبه أن يحيطه بالرعاية وينميه لكى يبدو ابن أعوام حتى مداعبة الشارب كانت تتم بروية وكأنها مداعبة كبير لشاربه الكبير .

وكان أحمد سلطان ينصت وابتسامة كبيرة لا تغادر ملامحه ، ابتسامة كان صفوت يحس أمامها دائما أنه مهما قال وتحدث عن مغامراته فهو صغير ، مجرد تلميذ خائب فى مدرسة أحمد سلطان ناظرها . ابتسامة يظن صفوت أنها ابتسامة تهكم وسخرية ، مع أنها قد لا تكون كذلك .

ظل صفوت يتحدث وأحمد سلطان ينصت ، وأخيرا بدا أن صفوت قد كف عن اخراج كل ما فى جرابه وأفلس فقال لأحمد :

— أبو حميد .. بزمتك ابن مين ده ؟

هنا قهقه أحمد سلطان ، واحدة من قهقهاته العاليات التى كانت تسمع فى بيت مسيحة أفنـدى ، وكلما سـمعها مسيحة تخترق الجدران وتصل آذانه وتكاد تخرقها ، اشمأنط ولوى بوزه وأفلتت من فمه كلمة سباب . ولأمر ما لم يطمئن صفوت لقهقهة سلطان . وحسبها أنها قهقهة تهكم هى الأخرى ، ولعل هذا هو السبب فى أنه استطرد قائلا :

— تعرف انك غويط قوى . كده والا لأ ؟

وقال أحمد وقد آبت قهقهته الى ابتسام :

— ليـه ؟

ومضى صفوت يشرح له لمـاذا هو خبيث وغويط ، وكيف يستحل لنفسه أن يقوم بمغامرات أخرى لا يعرفها صفوت ولا تصل الى علمه ، مع أنهم فى الخير والشر سواء .

وحاول أحمد أن يغير الموضوع ويسأل صفوت عن آخـر أخباره مع لنده . والحقيقة أن ذلك الموضوع كان هو موضوع صفوت المفضل ، لا يمل الحديث عنه ، ولا تخلو جلسة مع أحمد سلطان منه . فعلى الرغم من كل شىء ، على الرغم من بندقية الصيد المعلقة فى كتفه ومغامراته فى القاهرة وعاصمة المديرية ، وعلاقاته الطيارى مع بعض نساء التفتيش وبناته ، فقد كانت لنده تحتل من قلبه مكانا خاصا تحيا فيه باستمرار . لم يكن قد قابلها كثيرا ، وكل

ما دار بينهما من حديث لم يتعد جملا تعد على الأصابع تبادلاها خلال علاقة استمرت سنين طويلة بين عائلتيهما ، ولكن كان هناك شيء يحسه فى نفسه تجاهها ، ويحسه فى نظراتها تجاهه ، شيء غير منطوق أو مرئى ولكنه موجود وقائم ، يغذيه بشجن خفى يدغدغ أحاسيسه الداخلية ويجعله كلما شعر به يريد أن يبكى فعلا أو أن يضحك أو يهدم سراية التفتيش وكل مبانيه . وأحيانا حين يتمشى على الترعة تجاه بيت مسيحة أفندى ، ويجد لنده واقفة فى الشباك ، بعيدة ، يبدو وجهها ناصعا تحوطه هالة النافذة المظلمة ، حين يراها هكذا يحس بتيار غريب قد سرى فيه وجعله يريد أن يطير ويغنى أو يقف فى مكانه لا يفعل شيئا بقية حياته الا أن يمد بصره خلسة بين الحين والحين ليجدها تنظر ناحيته أو على الأقل ناحية الترعة . وآه لو رفع البندقية فى الهواء ونقلها من كتف الى كتف محاولا أن يجعل من النقلة اشارة تحية ، ورفعت هى يدها اليمنى وصعدتها لتمسك بها حديد الشباك من أعلى ، وكأنها ترد التحية . حينئذ تميد به الأرض ويظل طوال يومه وكل ليله يتذكر اللحظة ، ويعيد الحركة ببطء أمام عينيه وهو سادر بعيدا عن الدنيا وأهله والتفتيش فى غيبوبة منتشية لا يريد أن يصحو منها .

وأحمد سلطان هو مكمن سره ، فى حجرة نومه الخالية تقريبا من الأثاث يترك صفوت نفسه على سجيتها ، ويقص على أحمد سلطان دقائق ما حدث كلما حدث شيء ، ودائما تختتم الجلسة بذلك السؤال الحائر : ترى هل تحبه لنده ؟

كلما سأل هذا لأحمد أكد له أنها تحبه ، ولكن تأكيده ليس

مهما ، المهم هو ابتسامته التى ينطق بها تأكيده ، لو فقط يؤكد له مرة بلا ابتسامة لآمن حقيقة بصدق ما يقول .

وكان حريا بصفوت أن يستجيب للباب الذى فتحه أحمد ويخوض معه فى سيرة لنده ، غير آن هذا لم يكن هدف صفوت فى ذلك اليوم ، كان يريد أن يعرف هو عن مغامرات صديقه ، أو على الأقل تلك المغامرة التى من المحتمل آن تكون قد أدت الى هذا اللقيط الميت .

ويبدو أن اصرار صفوت قد فعل فعله ، فبعد سجارتين انفكت العقدة عن لسان أحمد سلطان ، ومضى يحدثه ، أو بالأحرى يعترف له . وظل يقول له :

—وعارف مرات الحج بدوى وبنتها ؟

فيقول صفوت : هيه .

فيعود أحمد سلطان يقول :

— وحياتك كانت واحدة منهم فى الأودة هنا معايا على السرير اللى ما غيروش الزمان ، والثانية مستخبية فوق السطح . وعارف البت دى اللى كانت بتشتغل مع الأنفار اللى بيفرزوا القطن . البت الهايشة دى .

فيقول صفوت :

— أنهى واحدة .

— البت الطويلة الهايشة دى .

— آه ..

— وحياة شرفك هى اللى قالت لى بعضمة لسانها خدنى .

— وعملتها .

— يعنى أكسفها ياسى صفوت .

وشهدت حجرة أحمد سلطان فى تلك الليلة روايات كاد يقف لها شعر صفوت ، روايات جعلته يعتقد أنه بكل مغامراته وما فعله ليس سوى قطرة من بحر أحمد سلطان . بل الأمر لم يقتصر على هذا ، ولم تقتصر اعترافات أحمد سلطان على نفسه ، تعـدتها الاعترافات ، ومضت ، بكلمة وراءها كلمة ، وحقيقة اثر حقيقة تكشف عن الوجه الآخر لحياة التفتيش ، الوجه المستتر دائما ، الذى لا يظهر أبدا ، ولا يطلع عليه أحد ، الوجه المعقد المتشابك الحافل بكل ما هو أغرب من الخيال ، علاقات بين أبناء ونساء آبائهم ، وبين فاضلات وفاسقين ، وفاسقات وفاضلين ، وحجاج و (تملية) ، وحتى الموتى وردت فى الحجرة سيرتهم .

وأخيرا وبعد مقدمة طويلة ساقها صفوت للتدليل على حياده ، وعلى أنه فقط يريد أن يعرف بصرف النظر عن علاقته الشخصية بالمسألة طرق صفوت الموضـوع الذى من أجـله جلس تلك الجلسة واستغرق كل تلك المدة الطويلة فى جس النبض . سأل أحمد سلطان وهو يستحلفه بكل مقدس وشريف أن يقول الحقيقة سأله عما يعرفه عن الوجه الآخر للنده .

وهذه المرة ، وبوجه جاد ، وملامح لا تحتمل الشك نفى أحمد سلطان أنه يعرف عنها أى شىء يدعو للخجل . وعاد صفوت يلح فى سؤاله وعاد أحمد يلح فى نفيه وتأكيده .

ومع هذا ، وحين قام صـفوت وقد بدأت الشمس تستعد

للمغيب ، حين قام ليستعد هو الآخر للرجوع الى بيتهم ، كان لا يزال غير مطمئن تمام الاطمئنان الى ما قاله أحمد سلطان عن لنده.

* * *

أما أحمد سلطان فقد ظل برهة طويلة جالسا على نفس المقعد (الجريد) ذى المساند الذى كان يجلس عليه ، يحدق فى سقف الحجرة ومن خلال نافذتها الوحيدة ، ويتأمل . ثم بدأ لمعان غريب يتسرب الى عينيه ، لمعان كومض الجنون أو برق النشوة . ثم بدأ يتململ فى كرسيه وكأن مشكلة كبرى تحيره ، ولكن تململه لم يدم طويلا فما لبث أن قام من مكانه وغادر البيت . وظل وقتـا يحوم فى شارع العزبة الرئيسى بحذر مع أنه الوحيد بين رجال الادارة الذى كان قد كسر قانون عدم اختلاط الموظفين بالفلاحين ، حتى أصبح وجوده فى قلب شارع العزبة أو فى أحد بيوتها أمرا لا يثير اندهاشا أو تساؤلا . وعند باب بيت مفتوح توقف قليلا ، وبهفة من ثوبه واشارة من يده كانت الجالسة فى الداخل قد أدركت هدفه وفهمت أنه يريد لقاءها عند الجامع .

والجامع كان يقع فى زاوية العزبة الغربية ، جامع مبنى بناء رخيصا من الطوب النى ، ومئذنته قصيرة تبدو كالأصبع المرفوعة المبتورة ، والطريق الى الجامع خال فى أغلب الأحيان ، اذ نادرا ما يستعمل للصلاة الا فى يوم الجمعة ، أما بقية الفروض فيؤديها الفلاحون فى (المصلى) المقامة على الترعة ، والتى كانت مقامه فى أول الأمر على الخليج فى مواجهة المنزل الذى يقطن فيه المأمور ، ولكنه أمر بهدمها وعدم استعمالها ، وأقام تلك المصلى الأخرى ،

اذ كان يضايقه الى درجة الغضب ، مرأى الفلاحين وهم جلوس فى المصلى أمام بيته (يجرحون) البيت وسكانه على حد تعبيره ، والأدهى من هذا حين يقبلون فى الصباح الباكر ويخلعون ملابسهم ليغطسوا فى الترعة ويتطهروا ..

لم يمض وقت طويل على أحمد سلطان فى ذهابه ومجيئه وراء الجامع حتى بدا له من خلال ظليمات المغرب ذلك الثوب الأسود الفضفاض الذى يعرف صاحبته . كانت أم ابراهيم زوجة فقى الجامع وخطيبه ومؤذنه ، امرأة فارعة الطول قمحية ذات قدرة خارقة على وضع الكحل فى عينيها وحبك المنديل على جبينها وامساك طرف ثوبها بيدها ، وهفها باليد الأخرى حين تمشى وتتمخطر .

وكانت معرفتها بأحمد سلطان وطيدة ، اذ كانت من أوائل من عرف من النساء حين جاء أول ما جاء الى التفتيش ، ثم تطورت تلك (المعرفة) الى نوع من الصداقة ، تطبخ له أحيانا ، وتهاديه بطبق قشطة أحيانا أخرى ، مع أنها كانت قد فقدت الأمل فيه وفى تجدد علاقتهما .

سلم عليها أحمد سلطان بحرارة ، وقرصها فى بطنها كعادته فى الأيام الغابرة وبعد عتاب طويل منها ، وحجج منه ، قال لها :

— عايزك فى حاجة .

— أؤمر ..

— لينده .

قال الكلمة وسكت ، ولم تسأله هى أيضا منتظرة أن يكمل

وخائفة فى الوقت نفسه ألا يكمل . هى فاهمة وهو فاهم ، ولاداعى للتغابى .

قالت بعد وقت وبعد أن تأملت بسمته وملامحه الحلوة :

— بس دى صعبه ما أقدرش عليها ..

— ايييه .

قال أحمد هذا وهو يقرصها مرة أخرى فى بطنها ، وقوست هى نفسها لتبعد بطنها عنه ولتقرب وجهها منه وتحاول أن تثنيه ، ولكنها كانت تعرف أن محاولتها فاشلة ، فما صمم على أن ينال شيئا الا ناله ، وما يقوله ان هو الا أمر عليها أن تطيعه .

صمتت برهة . ثم انفرجت ملامحها قليلا ، وابتسمت ورفعت سبابتها وأشارت الى عينها اليمنى ثم الى عينها اليسرى وكأنها تقول : من عينى دى ومن عينى دى .

وفى ذلك الوقت جاءهما من بعيد صوت خشن مبحوح يؤذن لصلاة العشاء ، صوت أبو ابراهيم ، ومع أن صاحبه كان بعيدا عن المصلى حيث الأذان والصلاة ، الا أن الصوت هبط عليهما فأنهى المقابلة فى الحال ، واستدارت أم ابراهيم تطقطق بشبشبها عائدة وكأن صوت أبى ابراهيم قد فاجأها متلبسة ، أما أحمد سلطان فقد مضى على مهله ، ينظر الى العزبة والأضواء القليلة المبعثرة فيها ويشم رائحة الأرز والسمك والبصل وهى تختلط بروائح الدخان القابضة ، ويتأمل الليل المحيط الكبير ، ويحلم بلينده ، حين تأتى ذات مساء الى بيته ، الى حجرته العتيدة ، خجلى خائفة ، وكيف سيؤنس وحشتها ، وسيحيل خجلها بقدرته الخارقة الى جرأة ودلال واقدام .

١١

طال العشاء على غير العادة ، واستمرت السهرة القصيرة التى تعقبه جـزءا أطول من الليل ، وظل جنيدى فاتحا دكانه مشعلا (كلوبه) الى ما بعد العاشرة ، وعلى حائط القنطرة الحجرية امتدت جلسة الرجال ، وكان لا حديث الا عن اللقيط .

ولم تكن العزبة الكبيرة وحدها هى التى شغلت بالحديث ، انتقل الخبر الى العزب المجاورة ، بل والقرى المجاورة أيضا ، حمله اليها (الشغيلة) الذين يعملون فى التفتيش ويقطنون فى تلك القرى. فالحادث جلل والحياة فى التفتيش تمضى سهلة لينة لا يعكر صفوها الا خناقة تنشب بين اثنين أو سرقة صغيرة ترتكب ، أما أن يعثروا ذات صباح على لقيط مقتول فذلك أمر تنعقد له المجالس ولا تنفض ويختلف الناس حوله ولا يتفقوا ، والناس فى التفتيش يجيدون الكلام ، تلك طبيعة جبلوا عليها واشتهروا بها ، بل يقولون أن سببها هو السمك الذى يكاد يكون الطعام الرئيسى لأهل التفتيش وأهل المنطقة بأسرها . يجيد الواحد منهم حكى الحكاية وابراز تفاصيلها ، ويجيد ايراد الحجج وتفنيدها ، حتى نطقهم للحروف ، تجده — من كثرة استعمالهم للكلام — واضحا لا لبس فيه . الحديث لديهم هواية ، بل يكاد يكون هوايتهم الوحيدة ، ولهم فيه نوابغ ، أولئك الذين اذا حضروا مجلسا كان لسانهم أذلق لسان ، وتصدروه . نوابغ كثيرون ، الأسطى محمد أحدهم ، ومحمد

أبوطلبة ،وسيدهم جميعا الشيخ عبد الوارث الكبير، والشيخ عبد الوارث لايجيد الحديث فقط ،ولكنه أيضا يجيد الفلاحة ، والفلاحة حرفة ، فيها المهرة والكسالى ، والأغبياء والأذكياء ، فيها الذى يحدد بنفسه ميعاد رى الأرض ، وفيها من يروى أرضه فقط لأن جاره روى ، والشيخ عبد الوارث يكاد يكون أكثر أهل التفتيش حذقا للفلاحة ، بل يكاد يكون المستشار الدائم للفلاحين اذا أعيت أحدهم الحيل فى أرضه . وهو بشاربه الذى ليس بالكث أو الرفيع وعمامته النظيفة دائما وبشرته السمراء وعينيه البنيتين الواثقتين كانت كلماته المطمئنة البطيئة فيها القول الفصل فى كل خلاف ينشأ ، بل كان المأمور لا يبت فى أمر من الأمور الكبرى فى التفتيش مثل ميعاد زرع الأرز ، أو حرث أرض القمح وتسويتها لاستقبال حبات الأذرة ، الا بعد أخذ رأى الشيخ عبد الوارث ، اذ رأيه دائما فوق رأى مستشاريه من الخولة وكبار الفلاحين .

وكان الشيخ عبد الوارث يتصدر الجالسين أمام دكان جنيدى ولأول مرة كان يبدو عليه أنه بلا رأى ، كانت الآراء كلما تلاطمت واختلفت ونظر الجالسون اليه يستطلعون ملامحه وينتظرون قوله، كان لا يفعل شيئا أكثر من أن يتنحنح كالمحرج ويقول : الله أعلم ياجماعة .

وحتى لم يطل بقاؤه معهم ، لم يلبث أن استأذن وقام مدعيا أنه لم يصل العشاء وعليه أن يصليها قبل أن يدهمه النوم .

وبقى الجالسون مثلهم مثل الساهرين عند القنطرة ، أو فى البيوت ، حائرين . والغرابوة بدا أنهم بريئون من التهمة ، والعزبة

لم تترك امرأة فيها أو بنتا الا ونوقشت سيرتها ، وتأكد الناس من أنها ليست الفاعلة . لم يبق الا أن اللقيط من عزبة مجاورة أو من قرية أخرى . ولكن السؤال كان : لماذا يكبد أحدهم أو احداهن نفسه أو نفسها مشقة السير الطويل لالقاء اللقيط ، وكان بوسعه أو بوسعها أن يتركه فى قلب الغيطان ؟

بيتان فقط من بيوت التفتيش لم يناقش فيهما أمر اللقيط أو جاءت سيرته . بيت فكرى أفندى المأمور الذى سألته زوجته على الغداء عن قصة الجنين، فاكتفى بأن غمغم بضع غمغمات تعرفها أم صفوت جيدا وتعرف أنه لا يقولها الا حين يود قفل باب الحديث . وحين يريد فكرى أفندى قفل باب الحديث فمعنى هذا أن باب الحديث يجب أن يقفل فهو رجل لم يتزوج امرأة تشاركه حياته ، تزوج واحدة تخدمه ، واختارها حلوة تجيد الطبيخ ولا تعرف شيئا عن ذلك العالم الغريب الكائن بعد باب المنزل والحافل بالشرور والآثام .

ولهذا فقد كان يجد الحرج البالغ كلما دعيت زوجته لزيارة بيت مسيحة أفندى أو جاءت عفيفة وأولادها لزيارتهم ، فى عرفه أن تلك الزيارات هى الأخرى بدعة لا تجوز ، والزوجة شىء خاص به لا يجب أن يطلع عليه أحد ، ولا حتى نساء غيره . الحديث عن اللقيط حينئذ مع زوجته أمر خبيث لا يجوز الخوض فيه ، اذ هو شىء يمت الى العالم البغيض الفاجر .. عالم ما وراء الباب .

أما فى بيت مسيحة أفندى فلم يجسر أحد على فتح باب الموضوع فالأب كان مغموما لا يدرى أحد لم ، ولنده راقدة

لا يزال المغص رابضا فى بطنها ، فى المساء فقط وحين أوى مسيحة أفندى وعفيفة الى فراشهما ، وراحت هى فى النوم العميق ، ظل هو بعدها يتأملها فى رقدتها ، برقبتها الرفيعة الطويلة التى كثيرا ما تلف حولها منديلا ، وشعرها الأكرت الأسود القصير الذى أورثته لأولادها ، ظل مسيحة يتأملها برهة ، يكاد يلكزها بكوعه لتستيقظ وتشاركه حيرته ، غير أنه لم يفعل ، فالموضوع الذى يشغل باله لم يكن يستطيع أن يصرح به لأحد ، حتى لو كان هذا الأحد زوجته عفيفة . وكيف يصرح لها بالهواجس الغريبة التى تخطر فى باله وتلح عليه .

كان شكه فى مرض لنده قد ازداد الى درجة بدأ يفكر فيها أن يأخذها الى الطبيب فى المركز ثانى يوم ليكشف عليها ، لا ليرى ان كانت مريضة حقيقة ولكن ليرى أيضا كنه ما حل بها . البنت تعدت سن الزواج وهى حلوة وموفورة الصحة وتحيا فى فراغ كبير ، ومن الجائز جدا أن يكون الشيطان قد أغواها .

كان قلب مسيحة يهبط كلما وصل الى هذا الحد من تفكيره ، كان يحس به حقيقة يهبط وكأنه يسقط من عل ، ولكن الهواجس لا ترحمه ، تمضى تصور له ما يمكن أن يحدث لا قدر الله . الفضيحة وخيبة الأمل ، والحيرة العظمى ، فمن المحال حينئذ أن يتزوجها ابن المأمور ، لألف سبب وسبب ، تراه ماذا يصنع حينئذ، وبأى وجه يحيا فى التفتيش ، وبأى صورة يواجه الناس .

وتستبد به الخواطر ، عنيدة فارضة نفسها عليه ، تلهب عقله وتجعله يتقلب فى الفراش ناظرا بحقد الى عفيفة المستغرقة فى سابع

نوم ، مخنوقا بالدموع المحتبسة فى حلقه ، التى لا تريد أن ترحمه هى الأخرى وتسيل من عينيه .

وبينما هو فى خضم ذلك الكابوس الرهيب ، عن له سؤال : أليس من الجائز أن يكون مخطئا ؟ ماذا لو ثبت أن اللقيط مثلا ابن واحدة من الغرابوة ، ألا يعد تفكيره على هذا النحو واتهامه لابنته وطعنه شرفها ضرب من الجنون والعته ؟

تشبث مسيحة أفندى بالخاطر وكأن فيه أكسير نجاته . واندفع يبحثه على وجوهه ويقلبه وكلما فعل هذا بدأ قلبه يعود الى مكانه من صدره ، وبدأت حركته تقل وبدأ يتنفس براحة وحرية ، وبدأت تثاؤبات النوم تأخذ طريقها الى نفسه .

وفى الصباح كان أول ما فعله حين أصبح فى حجرة مكتبه أن سأل عن المأمور فلما قيل له انه فى مكتبه ، دق الباب بحرصه المعتاد ودخل . وبعد تبادل التحية تفرس فيه فكرى أفندي المأمور طويلا، ليدرك هـدفه الخبيث من تلك الزيارة الصـباحية ، فزيارات الباشكاتب لمكتبه قليلة ونادرة ، ودائما وراء كل زيارة هدف ، والهدف على الدوام خبيث . غير أن الذى حير فكرى أفندى أن مسيحة لم يقل فى زيارته الشىء الكثير ، ظل جالسا مدة يتحدث فى الأمور المعتادة ثم سأله سؤالا عابرا عما تم فى حكاية اللقيط . أجابه فكرى أفندى عليه بحسن نية ، ولكن ما أدهشه أن مسيحة بدأ يطعن فى الغرابوة فجأة وبشدة ، ويصر ويكاد يقسم على أن الفاعلة لابد واحدة منهن . ثم ما لبث أن استأذن محتجا بالعمل ، وترك فكرى أفندى حائرا فى تفسير هذا التحيز المفاجىء منه ضد

الترحيلة . ولم يتح لفكرى أفندى أن يحتار طويلا ، اذ دق بابه بعد قليل ، وبشخطته المعهودة قال : ادخل . واذا بالقــادم محبوب بوسطجى التفتيش ، واذا ببرنيطته المصنوعة من قماش أزرق مائلة على جبهته والدموع تملأ عينيه والشهقة ترفعه ولا تتركه الا لشهقة أخرى تهوى به ، واذا بالمشكلة التى جاء لأجلها أغرب مشكلة :

— ما لك يا محبوب ؟

قالها فكرى أفندى وهو يغالب الضحك .

ولم يرد محبوب ، مد يده القصيرة الى الحافظة المتدلية بجواره والتى قصر (أبزيمها) الى آخره ليمنعها من أن تلامس الأرض ، مد يده وأخرج منها خطابا مفتوحا ظرفه بعناية وبلا تمزق . ولم يقل حرفا .

تناول فكرى أفندى الخطاب . وقلب الظرف ، فوجد مكتوبا عليه بالقلم الكوبيا : يصل ويسلم ليد أخينا المحترم عبد المنعم أفندى عواد بطنطا شارع الجامع الأحمدى نمرة ٣٤ خصوصى لحضرته .

لم يكن فى العنوان ما يثير ، وما يمكن أن يصلح سببا لدموع محبوب وشهقاته ، حتى كاد المأمور يعيد الخطاب اليه لولا أن محبوب تمالك نفسه وجفف دموعه ومضى يحكى كيف بدأ يشك فى الخطاب .

قال محبوب أن سعادات زوجة الأسطى عبده سائق اللورى ، والتى تقطن فى نفس العزبة الذى يقطن فيها محبوب ، استوقفته وهو راكب الحمار فى طريقه من العزبة الكبيرة الى محطة الدلتا ، استوقفته عند عزبتهم وطلبت منه أن يأخذ هذا الخطاب معه ، ولما

سألها عن صاحبه — اذ من غير المعقول أن تكون هى صاحبته — قالت له انه من زوجها لقريب له فى طنطا . لم يأخذ محبوب ويعط معها ، فهو يعرف صحيح أن لزوجها قريبا فى طنطا وأحيانا تأتيه خطابات من هناك . صدقها ومضى فى طريقه الى القطار ، ولكنه بعـد أن تجاوز العزبة بقليل بدأ يحس وكأن الخطاب — دون بقية الخطابات التى معه — يشكه فى جنبه ويقلقه . وعلى هـذا وجد يده تمتد الى الحقيبة ، ويخرج منها الخطاب ويتأمله . تأمله لثوان قليلة ، ومع أنه أمى لا يعرف القراءة أو الكتابة ولا يستطيع أن يفرق بين خط وخط الا أن « شىء الهى قال لى ان الخط ده خط مراتك ياواد يامحبوب » . وفجأة بدأت تتكشف أمامه أمور لم تخطر له أبدا على بال . زكية امرأته لها قريب فى طنطا كان قد أتى لزيارتهم منذ بضعة أسابيع ومكث لديهم أياما ثلاثة ثم غادرهم. وقريبها هذا أفندى قالت له زكية انه تلميذ فى مدرسة الصنايع ، ورغم أنه كان يبدو كبيرا جـدا عن تلميذ ، بشـاربه الكامل وذقنه وهيأته ، الا أنه صدق زكيه وأخذ قولها بحسن نية . ولكنه الآن ، والخطاب فى يده يحس بحروفه وكأنها ملامح زكية وتقاطيعها ورائحتها لم يعد ثمة مجال لحسن النية . والذى حدث أن محبوب غير من اتجاهه وبدلا من أن يذهب للمحطـة جاء للشيخ على أبو ابراهيم فقى التفتيش ، وكان قد فتح الظرف باحتراس وأخرج الخطاب الذى فيه ، وطلب من الشيخ على أن يقرأه .

أخذه الشيخ على وأخرج منظاره السلك وأمعن فيه بصا وتفلية وقرأه فى سره وما آن انتهى حتى هب فى محبوب :

— الله يقل مقامك يابن زبيده . ايه ياواد الكلام الفارغ ده .

وكاد محبوب يتهاوى من طوله المتواضع القصير فقد أيقن أنه كان فى شكوكه على حق ، ومال على الشيخ على وقبل يده وبللها بدموعه طالبا منه أن يصنع فيه معروفا ويقرأ له الخطاب . وقرأه عليه الشيخ . فاذا به من زوجته زكية ، واذا به خطاب غرام منها ، واذا بها لم تكتف بهذا ، بل أرادت أيضا استغفاله ، وأن يحمل لها هو خطابها الى عشيقها فيما يحمل من بريد مستغلة الفاجرة جهله بالقراءة والكتابة .

طوال الفترة التى استغرقها محبوب فى سرد حكايته كان فكرى أفندى يكاد يموت من الضحك ، ولم يكن حتى يبذل أى مجهود لاخفاء ضحكه بل أكثر من هذا كلما رأى محبوب منفعلا ومتأثرا داهمته الرغبة فى الضحك .

وحين انتهى محبوب وعاد ينخرط فى بكائه وشهقاته ، لم يعد فكرى أفندى يتمالك نفسه ، انفجر فى نوبة ضحك عالية ، ودق جرسه واستدعى مسيحة أفندى وأحمد سلطان وكبير الخولة الذى تصادف وجوده فى المكتب ، وتولى نيابة عن محبوب قص الحكاية وتولوا هم نيابة عنه الضحك ، ومحبوب سادر فى انفعاله وبكائه .

وقال له فكرى أفنـدى وهو يمسح الدمـوع عن عينيه الضاحكتين .

— ومارحتش ضربتها ليه يامحبوب .

— أضرب مين ياحضرة المأمور .. أنا قدها .

قال محبوب هذا وانخرط فى البكاء . وانخرط المتجمهرون

حوله فى الضحك ، فهم يعرفون زكيه بطولها وضخامتها وجبروتها، وأمامهم محبوب بقصره ونحافته وصوته القصير النحيف .

وحين شبعوا ضحكا . هدهد المأمور على محبوب واعدا اياه بأنه سيؤدبها له ، بل أرسل فى طلبها فعلا ، وقال لمحبوب وكأنه يستدرك :

— والله تحب تطلقها يامحبوب .

ففرت من عينيه دمعتان أخيرتان وقال :

— اللى تشوفه حضرتك . دى ودينى وما أعبد فاجرة وعلى يمين بالطلاق ان ما كان اللى لقيوه الصبح ده ابنها . أصلها عايزه تخلف وفاكرانى مبخلفش . ودينى فاجرة .

ووجد المأمور فى اجابته نخنخة معناها عدم الرغبة ، فعاد يؤكد له بأنه سيخصص المغربية كلها لزكية ، وسيريها فيها نجوم الظهر .

* * *

ويبدو أن نجوم الظهر فى ذلك الوقت كانت هى ما يشغل بال دميان ، كان حاملا سبت الطلبات فى طريقه للبحث عن أكلة سمك لبيت أخيه ، ولكنه حين وصل القنطرة الحجرية ، توقف فى وسطها تماما ، وتطلع الى الشمس التى تتوسط السماء . والناس فى العادة اذا تطلعوا للشمس لا يحتملون ضوءها الباهر فيغلقون عيونهم أما دميان فقد كانت لديه تلك القدرة الخارقة ، القدرة على التطلع الى الشمس والنظر فيها دون أن يغمض عينيه .

ولم تكن تلك القدرة هى السبب فى أن بعض أطفال الفلاحين التفوا يتفرجون على دميان فى وقفته تلك . السبب هو أنه كان

يتطلع الى السماء ثم يفرد كم جلبابه الأيسر ويحسب عليه بأصابع يده اليمنى ، ويقول لنفسه : منصورة .. انشا الله منصورة ..

أما من هى المنصورة ، ولماذا وكيف تنتصر، فذلك أمر لم يكن دميان يقوله ، حتى لو كان الناس قد سألوه عنه .

وبيت المأمور يقع تماما عبر الترعة ، والواقف فى نافذة بلكونته الصغيرة المطلة على العزبة كان يستطيع أن يشهد ما يدور فوق القنطرة الحجرية بوضوح ، ويشهد دميان فى موقفه المضحك ذاك . ولكن الواقف لم يكن واقفا ، كان واقفة ، كانت الست أم صفوت زوجة المأمور . سيدة فى الأربعين من عمرها بيضاء ممتلئة الساقين والردفين ، ترتدى رغم مكانة زوجها نفس المنديل بأوية الذى ترتديه العائقات من نساء الفلاحين ، ونفس الثوب المشجر الواسع التفصيل . كان أمر دميان يحيرها من زمن ، حتى انها سألت الست عفيفة زوجة أخيه عنه مرة ، وزاغت من الاجابة . واليوم ، لأمر ما ، ربما لهذا اللغط الكثير الذى دار حول اللقيط والحرام وما يصح وما لا يصح قد بلغ حب استطلاعها أشده . هى حبيسة بيتها الكبير ليل نهار لا تزور ولا تزار الا فى النـادر ، زيارات تنغص عليها عيشها ، زيارات متكلفة عليها فيها أن تجامل زوجات الموظفين ، وتدعى أمامهن الرقى والتمدين وأحيانا تنكشف ادعاءاتها فتحرج وتخجل وتنفرد بنفسها وتبكى . ويلها من فكرى أفندى زوجها اذا أخطأت ، فكرى أفندى الذى على الرغم من مضى أكثر من عشرين عاما على زواجهما لا تجرؤ على مناداته بغـير يافكرى أفندى ، أو بالكثير فى لحظات التجلى لا تزيد عن قولها : يا أبو صفوت .

أحيانا تحن الى طفولتها الأولى فى بيت أبيها الفلاح ، أحيانا تتمنى لو كان فى استطاعتها أن تفعل مثلما يفعل نساء الفلاحين وتستحم فى الترعة مثلا ، أو تخبز بنفسها العيش وتخرج الرغيف مستديرا تام الاستدارة كما كانت تفعل فى بيت أبيها .

فكرى أفندى من بحرى ، وهى صعيدية رآها زوجها حين كان يزور ناظر محطتهم قريبه ، فأعجبته وفى يوم وعدة ليال تزوجها ، ومنذ أن تزوجها وصلتها تكاد تكون مقطوعة بأهلها ، حتى أخوها حين يأتى لزيارتهم فى التفتيش بلاسته الصعيدية وقفطانه وحذائه ذى الرقبة الطويلة والأستك يخفى فكرى أفندى أمر زيارته ، واذا سأله البعض عنه قال انه من الرجال الذين يعملون عند والد الست، وأنه يأتى ليطمئن أباها عليها . وكل تلك النوازع والهواتف كانت أم صفوت لا تستطيع أبدا تحقيقها ، كان عليها أن تمثل دور زوجة المأمور المتكبرة المحترمة على الدوام . نزوة واحدة فقط هى التى كان يتاح لها أن تحققها دون أن يتهمها زوجها بالخطأ ودون أن ينالها عقاب . دميان . كثيرا ما كان يأتى الى البيت ليستعير حلة أو مصفى أو (فروطه) أو لينقل رسائل أم لنده اليها . وما من مرة جاءها فيها الا وأبقته لتتحدث اليه . وتبلغ أقصى درجات السعادة وهى تتحدث اليه ، اذ تترك نفسها على سجيتها تماما معه . تطلب منه أن يقرأ لها الفنجال ولا يكون طلبها الا فاتحة للكلام ، والغريب أن دميان كان ينطلق لسانه معها فيحدثها مثلا عن مشاكله مع الفراخ ، ومشاكله مع زوجة أخيه ، وأحيانا يبكى أمامها ، بكاء كبكاء الأطفال ، ومع هذا تشاركه البكاء .

كان دميان لا يزال واقفا فى منتصف القنطرة ، وهى لاتزال واقفة فى نافذة البلكونة والشىء الخطير الذى يؤرقها فى تلك الساعة لم يكن هو رغبتها فى الحديث التافه الساذج الذى كانت تستعذبه مع دميان ، ما كان يؤرقها هو المشكلة التى طالما أرقت نساء العزبة : ترى هل دميان فيه للنساء أم لا يصلح لهن . كانت هذه المشكلة كلما خطرت لها اعتبرتها عيبا وحراما لا يصح أن تسمح لنفسها بالخوض فيها ، ولكن فى تلك الساعة لا تدرى هى نفسها لماذا لم تعتبر أن التفكير فيها لم يعد حراما أو عيبا . انها لا تريد لاسمح الله أن تخطىء مع أحد بله دميان ، كل ما فى الأمر أنها تريد أن تعرف ، فهل يعد هذا حراما ؟

كلما طالت وقفتها فى النافذة ، وطالت وقفة دميان أمام عينيها على القنطرة كانت الرغبة تستبد بها ، حتى وصلت الى الدرجة التى لم تعد تستطيع معها صبرا .

وهكذا نادت على فاطمة ، وهى احدى البنات الكثيرات اللائى يشتغلن فى البيت ويحتسبن من ضمن الأنفار الذين يعملون فى الغيط ، نادت على فاطمة وطلبت منها أن تذهب وتأتى بدميان . لم يكن فى ذهنها خطة واضحة لما انتوته . ولا ماذا تفعل اذا هرب هو كالعادة من الاجابة على السؤال ، هل تستدرجه ، هل تخدعه ، هل تغريه وتمضى فى اغرائه الى نهاية الشوط لترى ان كان سيستجيب ؟ لم تكن فى ذهنها خطة واضحة ، ولكنها كانت قد صممت أن تعرف أمر دميان ، ولو أدى ذلك الى أن تفعل معه المستحيل.

جاء دميان ضاحكا مهمهما كعادته ، السبت معلق فى ذراعه

واللعاب يكاد يسيل من فمه كلما طوح برأسه أو شرع فى الضحك. وقابلته الست أم صفوت بترحاب ، وأجلسته على الكنبة فى حجرة النوم رغما عنه ، اذ كان ينفر من الجلوس فى حضرة الناس أشد النفور . ولم تكن هذه أول مرة يدخل فيها دميان حجرة النوم ، فدخوله فيها أمر لم يكن فيه شبهة أو عيب . جلس دميان على مضض وجلست هى بجواره ، وطلبت منه أن يحسب لها نجمها فى ذلك اليوم . وشرع دميان يقلب يده ويبلل أصبعيه ويرسم بهما على ظهر يده ويحسب .

ولم تكد تمضى بضع دقائق حتى شاهد الناس دميان يندفع جاريا من بيت المأمور والسبت لا يزال معلقا فى ذراعه ، وعبثا حاول البعض ايقافه لسؤاله عن سبب جريه .

ولم يمض جريان دميان من منزل المأمور بسلام ، اذ هو شىء غير عادى ، سر ، وكأنما سر لا حل له فلا بد من أقوال تتناثر عنه وتفسيرات وشائعات .

وعلى العموم لم يكن هـذا هو السر الوحيـد الذى بدأت الأقوال تتناثر عنـه وتشيع . ما أكثر الأسرار التى ارتفعت عنها أغطيتها وفاحت رائحتها وبدأت تزكم الأنوف . أيام قليلة مضت منذ اليوم الذى اكتشف فيه عبد المطلب اللقيط ، ولكنها كانت كافية لأن تقلب الأمور فى التفتيش رأسا على عقب ، فثمة أم لابد أن توجد لهذا اللقيط ، وطالما هى مجهولة فأى اتهام صحيح ، وأى اشاعة قد تكون هى الحقيقة ، والاشاعات كثيرة ، والألسنة فى التفتيش لا تهدأ .

١٢

ولم تستدعى المسألة أن ينتظر فكرى أفندى المأمور تسعة شهور كما فعل سيدنا عمر ، اذ بعد أقل من عشرة أيام كان قد عثر على الجانية . ولم يعثر عليها هكذا بطريق الصدفة ، فلفطنته فضل كبير فى اكتشافها . كانت لطع الدودة رغم كل مجهودات فكرى أفندى قد ازدادت بشكل ينذر بالخطر ، وأصبحت تهدد بالفقس ومن ثم باكتساح أرض القطن كلها . والواقع أنه من بين السبعة آلاف نسمة الذين يحيون على أرض التفتيش كان فكرى أفندى هو الوحيد الذى يهمه أمر الدودة ونقاوتها . فالمزارعون الفلاحون لا يهمهم القطن فى قليل أو كثير ، القطن وان كانوا يزرعونه ويحرثونه وتحتسب عليهم مصاريف جمعه ونقاوته وحتى تطهير المصارف حوله ، الا أنه محصول صاحب الأرض ولا شىء غير هذا . فالفلاح يأخذ حقيقة الثلث من محصول الأرض التى يزرعها ، ولكن الثلث يذهب هباء ، يذهب فى تسديد مصاريف القطن ومصاريف المحاصيل الأخرى والسلفة التى اقترضها الفلاح فى بحر العام ليشترى بها التقاوى ويكرى الأنفار ، وحتى اذا بقى للفلاح شىء بعد هذا يقيد لحسابه فى العام القادم ، فكيف يهمه أمر القطن اذن ، الادارة هى التى تأخذه وهى التى عليها أن تتعهده . والمسألة فى رقبة المأمور ، فالقطن غال وهو يعد المحصول الرئيسى للأبعادية واذا أكلته الدودة ضاعت على الخواجة صاحب الأرض

آلاف الجنيهات ، بل ضاع فكرى أفندى نفسه ، والسبب الرئيسى لرفده من التفتيش الذى كان يعمل فيه قبل عمله هذا كان هو الدودة حين فقست منه والتهمت أوراق القطن وأضاعت المحصول. ولذا ففكرى أفندى لا يخاف من شىء فى الوجود قدر خوفه من اثنين : الدودة وصاحب الأرض . ولا يتبلور هذا الخوف ويصبح هلعا الا فى موسم مقاومة الدودة وهى لا تزال لطعا . هو موسم الامتحان الرهيب لفكرى أفندى وأعصابه وعضلاته ومستقبله وكل شىء فيه . وبين شماتة الباشكاتب ومكائده وخطابات المفتش الذى يكتبها بنفسه وبخطه الماكر الحذر ، ويكتب أجزاء منهـا بالحبر الأحمر ويعلم تحتها بخط ، وبين عدم مبالاة الفلاحين ، ولكاعة الأنفار والسواقين ولعبهم يهلك فكرى أفندى وهو يصحو من الفجر ويعود من الغيط بعد أذان العشاء ، ويدعو الله دواما أن يسترها معه وأخوف ما يخافه أن تهبط المقاومة مرة فتنفقس اللطع وتكون الكارثة ، ويرفد ، ويعيش فى ذلك الذل المقيت الذى يفضل الموت على تعاساته . ففكرى أفندى كمعظم زملائه من مآمير التفاتيش ونظارها اذا رفدوا من التفاتيش لا يستطيعون مغادرته الا اذا وجدوا عملا فى تفتيش آخر . وعلى هذا حين يفصل الواحد منهم يظل يرجو صاحب الأرض حتى يبقى عائلته فى بيت التفتيش الذى يسكن فيه بينما يهيم هو على وجهه فى القطر كله سائلا معارفه وأصحابه باحثا عن عمل ولو لينقل اليه عائلته ويسكن . والمصيبة الكبرى حين تأتى عائلة الموظف الجديد بعفشها وصغارها قبل أن يجد الموظف المرفود عملا ومن ثم محل اقامة ..

من أجل هذا فرعب فكرى أفندى من الدودة أشد ضراوة من رعبه من الموت ، وحراصه على أن يتحلى بالخلق الكريم راجع الى اعتقاده بوجود رابطة قوية بين أى اثم قد يرتكبه وبين الشياطين السوداء الزاحفة التى يطلقها الله عليه فى كل عام مرة ، ليمتحن بها ، ويعاقب العقاب الأكبر اذا أخطأ ، وتنسحب ملايين الملايين من الشياطين الى أوكارها اذا ثبتت نظافته وبراءته .

كان لفرط حرصه ، يخرج قبل شروق الشمس ويجوب أرض القطن كلها مشمشما بأنفه خائفا لا قدر الله أن تلتقط حواسه رائحة الدودة ، فاللطع لا رائحة لها ، أما الدودة ، فأعوذ بالله من رائحتها حين يطب قلبه اذا التقطها أنفه .. رائحة غريبة على الغيط وعلى القطن وعلى الصبح المبكر .. ملايين الملايين من حيوانات صغيرة متوحشة تلتهم فى طريقها كل أخضر ويابس .. كأنها رائحة القبر .. رائحة الموت حين يلتهم الأحياء ويتبرزهم .. رائحة الورق الأخضر الحى وهو يموت ، والموت الأسـود الزاحف وهو يعيش على الأخضر الحى . كان فكرى أفندى يقشعر لمجرد السيرة ولمجرد ومضة الخاطر . وآه لو شمها الخواجة صاحب الأرض . الخواجة زغيب الذى لا يضطرب فكرى أفندى لشىء قدر اضطرابه حين يعلم أنه قادم . حتى وهو يصدر الأوامر للكلافة والتملية برش ما أمام السراية والطريق وكنسه تخرج أوامره راجفـة تفضح اضطرابه . ويقولون ان التفتيش كان فى أول أمره ملكا لاحدى البرنسيسات ، ثم باعته الأميرة للخواجة زغيب الكبير ، وصاحب الأرض الحالى ابنه الأكبر . ضخم فحل ذو شعر كثيف أصفر يظهر

من صدره وسواعده حين يرتدى القميص والبنطلون والبرنيطة البيضاء المصنوعة من الفل ويخرج للمرور . طوال المرور لايبتسم وانما يرقد فوق الحصان الذى لا يركبه أحد سواه ، يرقد فوقه كالتمثال الأصم . وفكرى أفندى الذى يبدو على الركوبة بجواره كالقرد العجوز ، طوال الوقت عيونه معلقة بملامح الخواجة ولسانه رائح غاد يتحدث ويحاول اضحاكه ، ويده تشير وتلفت النظر الى مصرف تطهر حديثا وتعمق أو الى مشاية أنشأها هو بحذق ومهارة ، يده تشير وتلفت وتدارى العيب أيضا اذا كان هناك عيب ، ولا بد أن يكون هناك عيب ، يدعو فكرى أفندى الله وملائكته ورسله ألا تقع عليه عين الخواجة ، ولكن عينه دائما تقع عليه وكأنما خلقت لا ترى الا العيب . والفاجعة أنه لا يتكلم حين يراه ، ليته يتكلم ، ولكنه يسكت ، وما أبشع سكوته فى تلك اللحظات .

كان متزوجا من فرنسية ، نادرا ما كانت تأتى معه فيحاول فكرى أفندى اتحافها بسبت صغير من التوت الأحمر الذى تحبه لعلها تدلى فى حقه بشهادة تبيض وجهه ولو بتلك اللغة التى لا يفهمها والتى لا تتحدث الى الخواجه الا بها . وكانوا يقولون ان الخواجه له عشيقة غيرها ، وانه لا يخلف ، وانه لولا دينه الكاثوليكى لكان قد طلقها ربما ليخلف ولدا يرث هذا الملك كله ويقولون — وفكرى أفندى هو القائل — أن له فى سرايته المطلة على البحر فى سيدى بشر بالاسكندرية ، حجرة سفرة من الذهب الخالص ، كراسيها مطعمة بالذهب وأطباقها وملاعقها وشوكها

وسكاكينها ذهب فى ذهب ، يقولون ان زغيب الكبير اشتراها حين عزم الملك لما كان سلطانا على العشاء عنده . ويقولون أكثر من هذا ، يقولون أن الخواجة الابن قد تدهورت أحواله بعد وفاة أبيه ، وأنه باع التفتيش فعلا للشركة البلجيكية للأراضى واستأجره منها وهو الآن يديره لحسابها ، تلك رواية ، ورواية أخرى تقول ان الأحمدى باشا مليونير المديرية يفكر فى شرائه بل ويتفاوض فعلا مع الخواجة والشركة . ويتصعب الناس ، فالأحمدى باشا هذا كان قبل الحرب العالمية الأولى شيالا فى مضرب أرز ، وتاجر فيه وكسب واغتنى واشترى المضرب ، وأصبح له شون وعمارات وآلوف مؤلفة من الجنيهات فى البنوك ، ويفكر الآن فى شراء تفتيش البرنسيسة والأدهى من هذا أنهم يقولون آنه على استعداد لدفع ثمنه بالكامل نقدا .

الأقوال عن التفتيش وصاحبه الخواجه زغيب كثيرة ، ولكن المهم أنه لا يزال صاحب الأرض الذى ترتجف أوصال فكرى أفندى لمجرد احتمال قدومه ، الساكت الذى لا يخرجه عن سكوته الا الخطأ اذا لمحه ، حينئذ لا يعرف أباه ، يفصل ويرفد ويخصم وأحيانا يضرب . وآه من هذا الساعد الضخم الذى تربى على الفراخ والحمام والديوك والخمرة حين يهبد به الواحد فيطبق به قفص صدره .

كان ازدياد لطع الدودة اذن خطر ساحق يجب تداركه ، وازدياد اللطع كان يعنى لدى فكرى أفندى شيئا واحدا : أن

مقاومتها ليست على ما يرام . ومعنى هذا أن الأنفار يتكاسلون والمشرفين عليهم من الخولة والسائقين والملاحظين يلعبون . وقد تكون هناك أسباب كثيرة لهذا . ولكن فكرى أفندى كان يعزوه لسبب واحد ليس هناك من سبب سواه . نهيق ركوبته . هو الذى يكشف قدومه من بعيد ويجعلهم يمثلون أمامه رواية وطى ياولد وطى يابنت التى يجيدون تمثيلها تمام الاجادة . وعلى هذا ألغى فكرى أفندى الركوبة من مروره . وأصبح يقطع عشرات الكيلو مترات سيرا على الأقدام ، عله يفاجىء مرؤوسيه ويضبطهم متلبسين بجريمة الاهمال .

وأكثر من مرة تم لفكرى ما أراد ، وفاجأ صفوف الأنفار من الخلف ، وفى كل مرة كان يخيب أمله بعض الشىء اذ كان يجد العمل قائما على قدم وساق ، ولا اهمال هناك أو تقصير . مرة ضبط عرفه ريس الترحيلة جالسا تحت الجميزة فى الظل يلعب السيجة مع الأسطى محمد العجوز ، ومرة ضبط صالح الخولى قد أرسل نفرة من الترحيلة لتحضر غداه من العزبة ، ولكن فيما خلا هذا كان العمل جاريا وكأن عرفه ليس جالسا يلعب السيجة أو صالح قد استحل لنفسه أن ينقص العمل مجهود نفرة !

ولكن فكرى أفندى لم ييأس ، فلا بد أن هناك اهمالا ما ، ولابد أن يضبط ذلك الاهمال . وفى ذلك اليوم حين عثر على تلك (الظليلة) مقامة بين أعواد التيل المزروعة حول تربيعة القطن ، دق قلبه بفرحة الاكتشاف واعتقد أنه أخيرا عثر على الاهمال ، فلابد أن تحت تلك الظليلة أنفارا يستريحون أو يلعبون . لم يضع جهده

اذن عبثا ، ولا راح هباء ذلك الارهاق الطويل الذى لاقاه من المرور بلا ركوبة سيرا على الأقدام .

ودون أن يسأل عرفة أو يكلمه ، ما كاد يرى الظليلة حتى أسرع تجاهها ليضبط المتظللين فى حالة تلبس .

كانت الظليلة مصنوعة من جوال قديم مربوط من جهاته الأربع فى أربعة أعواد من التيل . وحين فرق فكرى أفندى الشجيرات وأطل فوجىء حين لم يجد أنفارا كثيرين تحت الظليلة . فى الحقيقة لم يجد الا نفرا واحدا . أو على وجه أصح نفرة واحدة . امرأة كانت راقدة على جنبها كالنائمة .

وانقلبت خيبة أمل فكرى أفندى الى شراسة ، وقال لعرفه وعيونه تقدح بالشرر :

— ايه دى . نايمة هنا ليه . مش ماسكه خط ليه .

فقال عرفه وهو يبتسم ابتسامة ضايقت المأمور أكثر :

— دى عزيزة ياسعادة البيه .

وبنفس الشراسه قال فكرى أفندى :

— عزيزة ايه ؟ عزيزه مين ؟

ومرة أخرى قال عرفه وهو يخفض ناحية من ابتسامته ويرفع الأخرى :

— عزيزه اسم الله على مقامك ياسعادة البيه .

١٣

وكأنما دق جرس صدىء دقة واحدة باهتة فى عقل فكرى أفندى . أممكن أن تكون هى الآثمة التى بحث عنها حتى يئس ونفض يده من البحث ؟ الخاطر ضعيف وواه ولكن أوهى منه هو ذلك الخيط الممتد من ابتسامة الريس . فلو سأله مباشرة فمن المحتمل أن يخاف ويحرن كما تحرن الحمير اذا رأت حفرة فى الطريق ، وهو أعلم الناس بهؤلاء الناس حين يخفون الشىء ويخافون اظهاره . عليه أن يستعين بالمكر وطول البال وادعاء الجهل عساه يفلح فى اخراج كل ما وراء فم الريس المضموم المبتسم هذا .

وقال فكرى أفندى بنفس لهجة المأمور فى حضرة الخطأ :

— محسوبة دى من ضمن الأنفار ؟

وخاف الريس أن يكذب فيعاقب على كذبه أضعاف معاقبته على مغالطته فقال :

— محسوبة ياسعادة البيه .. وأنا محسوبك .

— وازاى تبقى محسوبة نفر وهى نايمة ؟

قال الريس بمسكنة :

— غلبانه عيانه مش قادره تمسك الخط ياسعادة البيه المأمور.

ورد فكرى أفندى بعنف :

— يبقى ما تتحسبش يوميتها .

قال الريس وأمره الى الله :

— ما تتحسبش ياسعادة البيه اللى تشوفه ما تتحسبش .

— لا ياشيخ .

قالها المأمور وقد استعد أن يوجه طعنتـــه ، فهو لا يعنى ما يستجد ، انه يعنى ما فات ، يعنى الأيام التى قضتها تلك المرأة راقدة لا تعمل واحتسبت فيها يوميتها زورا وبهتانا . والريس كان أيضا يعرف هذا ، ويدرك أن العقاب قد يكون فصله بل ومن المحتمل سجنه . ولم يصمد الرجل طويلا . من تلقاء نفسه قالها . ولم يقلها مباشرة بدأ بمقدمة طويلة عن الفقر والناس الغلابة وعمل الطيب والقائه فى البحر . ثم انتهى الى أن عزيزة هى أم اللقيط المقتول . وأنهم حين عرفوا هذا تستروا عليها ، فهى وليه وكلنا لنا ولايانا ، وحين أصابتها الحمى رأوا أن يرقدوها فى الغيط تحت ظليلة لكى يستمر أجرها ساريا ، فهى غلبانة آخر غلب وتنفق على زوجها المريض وأولادها الثلاثة منه .

كان المأمور يستمع اليه وعلى وجهه نفس صرامته الأولى ، ولكنه ، قرب النهاية ، بدأ وجهه ينفرج قليلا قليـــلا ، ثم بدأت الدهشة ترتسم عليه وتأخذ مكان الصرامة . المذهل فى الموضوع أنها كانت متزوجة ، فلماذا تقتل ابنها وهى متزوجة ، قال فكرى أفندى هذا للريس ، فأجابه الرجل :

— حد عارف ياسعادة البيه .. الدنيا مليانه بلاوى .

— حد عارف ازاى ؟! انت اتجننت والله جرى لعقلك حاجة . بقى واحدة مجوزة ، تموت ابنها خبط لزق كده ويبقى اسمه الدنيا مليانه بلاوى . جوزها عايش ياوله ؟

— عايش يا سعادة البيه ..

— ومخلفه منه ؟

— ومخلفه منه ..

— كانت بتقتل ولادها قبل كده ؟

— أبدا ياسعادة البيه .

— اشمعنى المرة دى ؟

— الله أعلم ياسعادة البيه .

الريس بدا وكأنه لم يفكر أبدا فى غرابة المسألة ، أو أنه كان قد فكر فيها فلم يأخذها أبدا على أنها مشكلة خطيرة تستوجب أعمال الفكر . كل ما فى الأمر أن الأنفار حين رجوه أن يصنع معروفا ويجعل عزيزة ترقد تحت الظليلة أثناء العمل ، فعل هذا عن طيب خاطر فهو يعرفها ويعرف زوجها وأباها ، وكل ما كان يقلقه أن يكشف المأمور أو أحد من رجال الادارة ما يحدث . ذلك هو كل ما كان يشغله . أما الآن فمشغوليته الكبرى هو التحايل على المأمور حتى يتجاوز عن هذه الغلطة . وهكذا عاد يرجو ويلح فى الرجاء أن يمسحها المأمور فى ذقنه ، وأنا وقعت من السما ياسعادة البيه وانت استلقيتنى .. الى آخر هذه الأقاويل التى يجيد الريس اخراجها ونطقها فى كل مأزق .

ولكن المأمور كان فى شغل شاغل عنه ، فأمله وان كان قد خاب قليلا ، اذ تبين أن ليس فى المسألة جريمة أو زانية ولا بنت بكر ضحك عليها شاب أرعن وأغواها ، أمله وان كان قد خاب ، الا أن

مشكلة المرأة بدأت تستحوز عليه بطريقة أخرى ، لماذا تقتل امرأة متزوجة مثل تلك الملتفة فى خرقها السوداء ابنها ؟

الريس لا يبدو عليه أنه يعرف شيئا ويخفيه ، والحقيقة لايمكن أن يعرفها الا الله سبحانه وتعالى وعزيزة .

قال فكرى أفندى للريس :

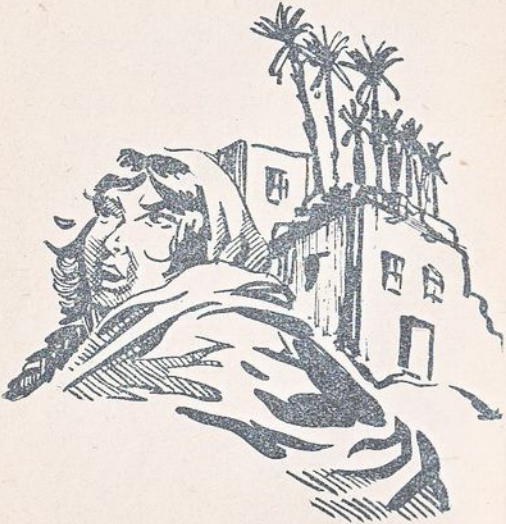
— سألتوها عملت كده ليه ؟

قال الريس :

— والله ما عرفنا نطلع منها حاجة ، وأهى عند سعادتك . كلمها.

وبغير أن يقول الريس هذا ، كان فى نية فكرى أفندى الأكيدة أن يتحرك الى الظليلة ويتفحص هذه المرأة الذئبة . كانت راقدة فى بطن قناية صغيرة من القنوات التى تروى منها الترابيع ، راقدة على جنبها وقد ضمت ركبتيها الى بطنها وأمسكت رأسها بكوعيها متكورة على نفسها كالجنين فى بطن أمه . ولم يكن يبدو عليها أنها تختلف قليلا أو كثيرا عن بقية النساء فى جيش الترحيلة ، اذ كان واضحا أنها سمراء غامقة السمار ، أو بالأحرى محروقة الجلد ، حرقته الشمس الكاوية التى تنصب عليه أشعتها طوال اليوم بلا حجاب أو حاجز . غير أن فكرى أفندى لم يفته أن يلاحظ أن ثنية ركبتها فاتحة ، وأن ثوبها الأسود المشقوق فى أكثر من موضع يظهر أحيانا بقعا بيضاء كدوائر النور حين ترتسم على الأرض من ثقوب السقف .

حدق فيها فكرى أفندى طويلا معتقدا أنها لابد حين تشعر بوجوده فوق رأسها سوف تجلس مثلا أو تعتدل ، ولكن شيئا من



هذا لم يحدث ، بقيت نائمة لا يتحرك لها طرف أو جفن ، وحينئذ قال لها فكرى أفندى :

— اتعدلى يابت .

قال لها هذا وهو يلكزها لكزة هينة ببوز حذائه .

ولم ترد أو تعتدل ، فقد حولت اليه عينيها حتى واجهتاه . وليتها لم تفعل . كان وجهها محتقنا شديد الاحتقان حتى استحال لونه الى سواد . وكان فى عينيها كتل دم ، دم حقيقى لا يحول بينه وبين أن يسيل الا ستار لامع رقيق . وكانت أسـنانها تصطك وجسدها كله يرتعش ارتعاشا تكاد العين لا تلحظه .

وبحركة تلقائية غريزية وضع فكرى أفندى ظهر يده المغطى بالشعر والعرق على جبينها . وسحبها فى الحال وكأنما أصيب بلسعة وهو يقول :

— دى عندها حمى ياوله .

فأجاب الريس :

— بقى لها يومين .. غلبانه .. زى ما سعادتك شايف .

— شايف ايه .. دى تموت كده .

ووجد الريس أن الوقت قد حان ، فما لبث أن أضاف :

— وعلى العموم اذا كنت سعادتك عايز تخصم يوميتها والله اللى تشوفه .

وكان التوقيت مضبوطا فعلا ، فقد هز فكرى أفندى رأسه هزات كثيرة ذات اليمين وذات اليسار وهو يردد : لا حول ولا قوة

الا بالله . وكان معنى هذا أنه على الأقل قد قبل أن يتغاضى عن رقدة عزيزة ، وأن يحتسب يوميتها .

ظل فكرى أفندى واقفا فى مكانه طويلا كمن لا يدرى ماذا يفعل ، ينظر الى المرأة المتكورة فى سوادها على الأرض الخشنة ذات الطوب والقلاقيل ، ويعـود ينظر الى الأنفار ، ثم يهيم فى سكون الغيط المضىء المقيت ..

وفجأة .. صرخت المرأة الراقدة كما يصفر القطار على حين بغتة ومدت يدها فى وحشية واقتلعت عودين من أعواد التيل ثم انهالت عليها عضا بأسنانها وقرضا وهى تقول مولولة :

— جدر البطاطا كان السبب ياضنايا .

وتراجع فكرى أفندى الى الوراء مذعورا ، وبعد ما التقط الريس أنفاسه قال للمأمور :

— أصلها لا مؤاخذه بتخرف ياسعادة البيه . الحمى ملهلبة نافوخها .. خد من ده كتير .. طول الليل والنهار على كده .. دى بتقول كلام .. باينها شافت كثير الولية دى .. ربنا يكون فى عونها .

١٤

حتى وهى فى تمام صحتها لم تكن عزيزة بارعة الجمال ولم تكن حتى جميلة . كانت طويلة رفيعة ذات أنف طويل رفيع ورقعة سوداء تعصب رأسها على الدوام ، ووجه أصفر وعينين واسعتين على احداهما نقطة بيضاء من رمد قديم . ولكنها لم تكن هكذا طيلة عمرها ، كانت ذات يوم بنت حلوة ذات أهداب وشعر ونهود، تضع الكحل وتطقطق بالشبشب اذا سارت وحاذت الشبان . كانت هكذا الى أن زوجوها الى عبد الله . وأيضا كان لها ليلة حنة وفرح ودخله ونقوط وماء ساخن حملته لها أم عبد الله فى الصباحية ، صباحية لم تستمر الا صباحا واحدا ، والصباح الذى يليه كانت فى الغيط . لم يكن لزوجها أرض يزرعها وحتى لم يكن له أرض يستأجرها ، كان يعمل باليومية ، يوم فيه ، وعشرة مافيش ، وعماده كله على مواسم الترحيلة حين يقبض من الحاج عبد الرحيم المقاول وتحمله عربات النقل الى تفاتيش كثيرة من تفاتيش مصر فى الدقهلية والشرقية وحتى الى الفيوم وبنى سويف كانت تحمله العربات . غير أنه من يوم أن تزوج عزيزة لم تعد العربات تحمله وحده ، أصبحت تحمل معه عزيزة . وبدل اليومية الواحدة أصبح يقبض يوميتين . وسنين طويلة حافلة قضاها هـو وعزيزة فى الغـربة وبلاد الناس رأيا فيها الكثير ، وجمعا القليـل ، ولكنهما عاشا ، وخلفا عبد الله الصغير وناهية وزبيدة ، عاشا ، يقبضان القبضية من

الحاج عبد الرحيم فى موسم القطن ويعيشون جميعا عليها بقية العام. يعيشون غصبا ومحايلة وبالجبنة أحيانا والعيش الحاف والملح فى أحيان ولكنهم يعيشون والسلام . الى أن حدث ما كان لابد أن يحدث ، مرض الزوج ، بدأ الأمر بمغص فى الجانب الشمال ثم انتقل الى اليمين ثم سرى فى البطن كله ثم بدأ البطن نفسه ينتفخ بالمـاء . وقالوا لعبد الله اكو بالنار فكوى بالنـار ، وقالوا له بلهارسيا وطحال فانهدت البقية الباقية من حيله وابر المستشفى فى المركز تندك فى ذراعه وتفرغ سمها الهارى فى جسـده وتجعله يهوى ، وتجعله يدوخ أحيانا ويرشون على وجهه الماء . ويوم فيه ويوم مافيش . وكل يوم لكى يذهب الى المستشفى لابد أن يصحو من الفجر ، ويكون هناك فى السابعة والا ضاع دوره ، ويعود فى العصر أو فى المغرب ماسكا فى بردعة حمار من حمير بلدياته مستندا اليها ، أو ماشيا عشر خطوات ومستريحا عشرا .

ومع هذا كله فقد ظل عبد الله يذبل ويذبل وكأن جسده يموت بالتدريج ولا قوة فى الأرض تستطيع أن تمنعه أو توقفه . حتى أقعده داء الميه . والواقع أن الداء لم يكن هو الذى أقعده ، الحاج عبد الرحيم هو الذى هزمه حقا وطرده من فوق عربة النقل . ولم تفلح الوساطات أو الشفاعات لديه . اذ ماذا يفعل به والوسـية بالتأكيد لن تقبل أن تحتسبه نفرا . وبكت عزيزة ونزلت هى الأخرى من العربة . وقال لها الناس : روحى أنت ، فأبت ، وقالت : نفوتها السنة دى يمكن السنة الجاية نطلع سوا . وغضب عبد الله وقال لها: روحى انت ، ولكنها أبت وقالت : وأسيبك على مين .

وظلت عزيزة بجواره . تخبز للجيران أحيانا ، وتلم روث البهائم وتبيعه وتسرح بالحطب الى المركز وتعود بقرش أو بقرشين ، وفى كل أسبوع أو عشرة أيام تحظى بيومية ، وعبد الله راقد فى صحن دارهم الواطئة ، بطنه عال ، وصوته واهن ، ويده المعروقة الصفراء تربت على عبد الله الصغير فى ناحية وعلى ناهية وأختها فى الناحية الأخرى ، ويحس أنه فعلا مريض وأنه عاجز وأنه لولا عزيزة لماتوا جوعا . ومع هذا لا يطاوعه ضميره فيئن وتتقبض يداه وينظر الى السقف المهبب المنهار بعينين قد كبرهما الداء ووسعهما وجعلهما تبرزان وتلمعان لمعانا غريبا ، ويقول :

— كده يارب .. يرضيك مراتى توكلنا ..

كان يستكثر هذا على نفسه ، بل عزيزة هى الأخرى كانت تتألم وهى تراه راقدا أصفر منفوخا عاجزا ، ولكن الزمن ، الزمن القوى القادر مالبث أن تكفل بكل شىء ، فلم يعد عبد الله يستكثر هذا على نفسه ولا على عزيزة ، ولم تعد عزيزة تنظر الى مرض عبد الله على أنه أمر غريب أو نشاز . أصبح كل شىء طبيعيا ، هى تخرج فى الصباح ولا تعود الا بشىء ، وهو يحرس الدار التى لاشىء فيها ، ويرعى الأولاد ، ويتحين الفرصة ليجرع الماء الذى تحرمه عليه عزيزة حين تكون موجودة ، فقد قالوا لها ان علاجه فى منع الماء عنه .

أصبح الأمر طبيعيا الى الدرجة التى قال لها عبد الله ذات يوم بدلع المريض ، حين يهده المرض ويجعله عصبيا كالأطفال ، كثير المطالب كالولد المدلل ، قال لها : نفسى فى البطاطة ياعزيزة .

وطلبات المريض مجابة ومقدسة ، وكأن أهله يرون فيها الشفاء، أو وداع الدنيا .

وقالت له عزيزة : ياحبيبى .. من عينى دى ومن عينى دى .

ولم تكن فى البلد بطاطه . كانت هناك زرعة بطاطة فى فدان قمرين ولكنها جمعت من زمن وبيعت وأرضها تهيأ للأذرة . ولكن طلب عبد الله عزيز وعليها أن تحاول ، وهى تعرف أن أهل البلد — بعد ما جمعت البطاطه — قد أشبعوا أرضها حفرا وتنقيبا بحثا عن جذر بطاطه يكون قد أخطأته فأس جامعها وأن لم يعد فى فدان قمرين أى أمل فى العثور على عقلة أصبع ، ولكن طلب عبد الله عزيز وغالى وعليها أن تفعل المستحيل .

وحملت عزيزة فأس عبد الله التى صدئت من قلة ما تستعمل ، وذهبت الى فدان قمرين وقصدت أقل الأمكنة حفرا وأخذت تعمل. وحفرت الى عمق متر ولم تجد ، وانتقلت الى مكان آخر أعملت فيه الفأس ، وأيضا لم تجد . كانت تجد كل شىء ، جذور الزرع القديم وشقافة ورملا وأحيانا قطع حديد ولكنها لاتجد أبدا جذور بطاطة .

وبينما هى تعمل وتلهث وقد شمرت ثوبها الأسود وربطته حول وسطها كما يفعل الرجال . رأت خيالا ثم سمعت صوتا يقول :

— بتعملى ايه يابت .

وحتى قبل أن ترفع رأسها كانت قد عرفت أن صاحب الصوت هو محمد ابن قمرين .

ورفعت عزيزة رأسها وعدلت ظهرها ومسحت عرقها وقالت له الحكاية ، ورجته أن يسمح لها بمعاودة البحث . وقال محمد كلاما

الها عن الحفر وكيف يضعف الأرض ويخفى طميها ويبور المحصول ، غير أنها عادت ترجوه وتلحف فى الرجاء حتى بكت . ويبدو أنها صعبت على محمد . فلم يوافق على معاودة الحفر فقط، ولكنه كان شهما فقال لها : طب عنك انتى .

وخلع جلبابه وأخذ منها الفأس وتلفت حوله بعين خبيرة ثم انتقى مكانا ما لبث أن راح ينهال بالفأس عليه ، وعزيزة قد جلست غير بعيد ترقبه . وتقارن بين حفرها وحفره ، والفأس فى يدها هى ، أقوى منها وأثقل ، والفأس فى يده هو ، هو القابض عليها ، هو المتحكم فيها هو الرجل . هو الرجل الذى يذكرها بعبد الله حين كان يعمل، وتصبح له تلك العضلات البارزة فى بطن ساقه وتتكور تلك العضلات الأخرى فى بطن ذراعه ، ويلهث ، ليس لهث المتعب، ولكنه لهث الرجل حين يعمل ، لهث منتظم قوى وقور .

كان محمـد ابن قمرين فى العشرين ، وكانوا يتكلمون عن زواجـه من ابنة قريبـة لهم ، وكان معروفا بشراسته حتى أنه لم يكن يتورع عن سب النساء ولكنه كان من الغيط الى البيت ومن البيت الى الغيط لا يعرف قهوة ولا غرزة ولا أى كلام فارغ مما يعرفه شبان القرية وصياعها . حمدا لله اذن أنه عاملها برفق ، حمدا لله أنه لم يشتمها ، وكتر خيره أنه تطوع بأن يبحث لها عن جذر البطاطة .

خبط محمد خبطتين متواليتين ثم قال لها وهو يبتسم وصوته يضحك ، وربما لأول مرة كانت تراه يبتسم أو يضحك : خدى ياستى .

وناولها جـذر بطاطه صغيرا فرحت به كاللقية ، وكادت تهم بالوقوف والذهاب جريا الى عبد الله بما حصلت عليه ولكنه قال لها : استنى . وبعد خبطات قليلة أخرى ناولها حبة بطاطة ذهلت لضخامتها ، فلم تكن جذرا ، كانت حبة حقيقية فى حجـم قبضة اليد أو تزيد .

لفت عزيزة البطاطة فى طرف شالها ولسانها يردد كل ماتعرفه من كلمات الشكر وتعبيراته ودعواته ، تتوجه بها الى السماء تطلب له طول العمر ونجاح المقاصد . واستدارت ملهوفة فرحانة لكى تأخذ طريقها الى البلد ، فالشمس كانت قد أوشكت على الغروب والدنيا تمست والى أن تصل الى البلدة يكون المساء قد حل .

ولكنها فى لهفتها وفرحتهـا لم تفطن الى الحفرة التى كانت وراءها وعلى هذا فقد فوجئت بنفسها تسقط مرة واحدة نصفها فى الحفرة ونصفها على الأرض .

والواقع أنها لم تتبين تماما ماحدث بعد هذا . الأمور حدثت بطريقة أسرع من أن تدركها أو تتلافاها . ما كادت تحاول أن تقوم حتى كان محمد الى جوارها فى الحفرة يسـاعدها . مرة واحدة وجدت نفسها فى حضنه وقد أطبق عليها بذراعيه ليرفعها وهى وان كانت قد ارتعشت حين أحست بنفسها فى حضن رجل غريب ، الا أن الرجل الغريب لم يكن سوى محمد الكشر الذى لا يتسرب اليه الشك . ولكن الشك بدأ يتسرب فعلا اليها حين لم يرفعها محمد ولم يدعها ترفع نفسها . وما كاد الشك يتسرب اليها حتى كان قد أصبح حقيقة — روعت أولا ولكنها استجمعت نفسها

ودفعته ، وناضلت ولكنها كانت ترى أن نضالها لافائدة منه . بل ليست تدرى على وجه الدقة سر هذا الانهيار الذى أصابها حين أصبحت فى حضنه . تريد أن تقاوم ولا تستطيع . تستميت ولكنها يائسة . تصرخ فيتجمع الناس وتصبح فضيحة ومضغة فى الأفواه ؟ تسكت ؟ تعضه ؟ حتى ملابسها التى لاتحتكم على غيرها مزقها . كل ما حدث انها ظلت تئن مذهولة مرعوبة حتى قام . وشتمته ، ولكن ماذا تفيد الشتائم . لم يقل هو حرفا ، فقط ، ظل ينظر هنا وهناك . الغيط خال تماما والبهائم والناس تروح من بعيد . وعاد اليها . وهذه المرة كان يمكن أن تقوم وتجرى وتضربه بالفأس ان اضطرت ، ولكنها لم تفعل . سكتت ، وظلت تئن أنين المظلوم الذى لا يخلى نفسه من مسئولية ظلمه .

* * *

وفرح عبد الله بالبطاطة وأكل منها الأولاد ، وحتى هى نابتها قطعة . وفى الأيام القليلة التالية كانت تراودها ذكرى ماحدث ، وتشيح بوجهها وتلعن نفسها وابن قمرين وجذر البطاطة وعبد الله ولكنها تحمد الله فى سرها أن أحدا لم يرها وان ابن قمرين ان تقوّل عليها فلن يصدقه أحد . ولكنها بعد أيام كانت قد نسيت كل شىء عما حدث . وأى شىء ينسى قدر البحث الدائب عن لقمة العيش . الذين لا ينسون هم الذين لديهم الوقت لكى يتذكروا ويسرحوا مع الذكرى ، وعزيزة تبدأ اليوم مسعورة تجرى هنا وهناك لتحصل على خبز لذلك اليوم ، وتعود منهوكة مهدودة ما تكاد تضع رأسها على المخدة القش حتى يدهمها تعب أشد فى

مفعوله من النوم ، غيبوبة طويلة يوقظها منها ذلك الهاتف الخفى الذى يوقظها كل فجر ، هاتف اللقمة والدار الفارغة والأفواه المفتوحة الجائعة .

حتى المرض الشهرى حين انقطع عنها لم تعره اهتماما يذكر ، فكثيرا ما كان ينقطع وينتظم ويغيب شهورا ثم يعود . لم تفطن الا حين بدأت تحس بالحمل . ورغم كل علاماته واشاراته فلم تصدق أنه حقيقة حمل ، أمن مرة واحدة أو مرتين يحدث هذا ، ومن أجل جذر بطاطة ؟! .

أفظع مافى الأمر كان عبد الله . عبد الله لم يقربها من عمر ابنتهما زبيدة ، والناس تعلم هذا ، فماذا يقول ، وماذا يقول الناس ؟ هو لن يقتلها فهو عاجز عن قتلها ، والناس لن يقتلوها فهم لن يستطيعوا قتلها ، ولكن القتل عندها أهون من أن يعرف عبد الله ويعرف الناس .

كان لابد اذن من التخلص من هذا الشر المستطير الذى يرقد فى مكان ما من بطنها ، ويكبر كل يوم ، ويملؤها ، ولن يهدأ حتى يخمد أنفاسها .وجربت عزيزة كل شيء . أعواد الملوخية وادارة الرحى فوق بطنها ، والقفز من السطح ، جربته . ولكنه كان ابن حرام فعلا فلم يزحزحه كل هذا ولم يسقطه ، بل مضى يكبر كل يوم ، بل بدأ يلعب ، ولا يحول بينه وبين أن يفضحها على الملأ الا هذا الحزام القوى السميك الذى تتحزم به فى غل وجبروت وكأنها تريد أن تخنقه فى بطنها وتقتله قبل أن يقتلها .

كان الحزام يخفى بطنها الى حد كبير ، وكانت تترك عب

جلبابها الأســود الواسع مهدلا فوق الحزام الخارجى ، وحين تمشى وحين تقف وحين تنام وحين تتحدث كانت تراعى دائما أن تفعل هذا بطريقة لا تدع مجالا للشك فيها . وكان هذا يؤلمها أشد الألم ، وكانت تتحمل أشد الشدائد حتى دون أن يكون لها الحق فى الشكوى ، والشكوى أحيانا تذهب بالألم . وكانت تحتمل ، وتكظم ، ويفيض بها الحال فى ليال ، فتصعد الى السطح كاللصة ، وتفك أحزمتها ، وتجلس كما يحلو لها ، وتتنفس بحرية وترفع يديها وأنظارها وروحها الى السماء وتطلب من الله أن ينقذها ، ان لم يكن لأجل خاطرها ، فلأجل خاطر عبد الله الراقد العاجز .

كل ليلة وكل دقيقة تدعو ولا دعاء من دعواتها يستجاب ، بل حدث ما هو أمر ، جاء الموسم ، ونادى المنادى فى البلد .. النفر بسبعة يا أهالى والقبض علىخمستاشر يوم والغايب يعلم الحاضر .

وكان لابد لها فى هذا العام أن تذهب والا هلكوا ، فالعام الماضى الذى لم تذهب فيه رأوا خلاله نجوم الظهر وعاشوا على الطوى . لابد لها من الذهاب . قال لها عبد الله هذا . وقال لها الناس ، وقالت هى هذه المرة : من غير كلام أنا رايحه .

وأخذت زوادتها ، وشدت على يد عبد الله وهى تودعه وقبلت الصغير واحتضنته وبكت وبكوا هم الآخرون وهم يصرون على الذهاب معها حتى (الحلزونة) .

وامتلأت العربة ، وزمر السائق وانطلقت ، وانطلقت معها عقائر الأنفار تغنى للمحبوب وللغربة وتعتب على الزمان . والغريب أن عزيزة بعد حشرجة بكاء أول الأمر ، ثم صمت ، بدأت تغنى معهم ،

وشيئا فشيئا بدأت تحس أنها تغادر أرض الفقر والعلل وجذور البطالة وأنها تدخل فى الحياة المضمونة الجديدة .

واشتغلت عزيزة ، ونسيت كل شىء فى غمرة الشغل ، نفسها ، وعبد الله والبلد ، ولكنها أحيانا كانت تذكر بطنها وما فيه وما حوله من أحزمة ، وأحيانا تنسى ، والنسيان والذكرى لا تكون سوى جزء ضئيل من الأشياء التى تتعاقب عليها ، تعاقب الشمس حين تشرق وظهرها محنى فوق العيدان وحين تغيب وهى تدفع باللقمة الحاف فى فمها ، كالنهار بما فيه من قيظ وعرق وعصى رفيعة يصل ضربها الى العظم والليل بما فيه من غيبوبة واسترخاء وأحلام تبقى دائما بلا تفسير .

غير أنها ذات يوم ، بعد القيالة ، اضطرت أن تتذكر كل شىء ، وتعى بكل شىء ، فقد لمع شىء فى عقلها كما يلمع النصل الغادر قبل أن يستقر فى جسد الضحية . فقد أحست ببوادر الطلق اللعين تنقر فى سلسلة ظهرها ثم تلتف حول بطنها لتعتصرها . أحست أن هذا الشر اللعين الذى تحمله ينقر جدار بطنها مطالبا بالخروج ، ينقر فى اصرار وتصميم ، نقرات مستمرة ، كل تالية أعلى من الأولى وأوجع وكأنه يهم بهدم الجدار .

لم يكن أحد من بلدياتها أنفار الترحيلة قد فطن اليها . وكيف يفطنون وهم لا يرى بعضهم البعض الا منحنين أو مبعثرين فى أكوام نائمة مكدودة أو سارحين والنوم لا يزال يغلق عيونهم ومروحين والتعب وتراب الغيظ يعمى العيون . كل واحد فى حاله ، ولكل بلواه ، ولا فرصة حتى للموجوع ليقول : آه .

ولكنهم غدا سيعرفون . والمصيبة ليست فى هذا . المصيبة حين تعود معهم الى البلد وعبد الله ، تعود أما لطفل ليس هو أباه . أليس الموت أهون ؟

تكاثرت الطلقات ، وما كاد الريس يصفر ، وينتهى اليوم حتى كان وجهها فى شحوب الموتى . بل حتى لم تلاحظ جارتها شحوبها . وعزيزة ساكتة صامدة تتحمل ولا تستغيث . خرجت من الأرض واغتسلت كما اغتسلوا ، وسارت على المشاية كما ساروا ، تتوقف هنيهة اذا جاءت الطلقة ثم تسرع حين تسكت . وحتى العشاء تعشت وكل ما كانت تريده أن تواتيها الفرصة لفك الحزام الذى يخنق بطنها ، اذ حين كان بطنها يتقيض داخل الحزام كانت تحس بآلام مروعة ، آلام لا يحتملها انس ولا حجر ولا جان . هى نفسها لم تكن تعرف بأى جبروت غير بشرى تحتمل ، دون أن يبدو عليها أقل لمحة أو بادرة ، وكل هذا من أجل جذر بطاطة ، لا ، كل هذا ، لأنها لم تقاوم لحظة . تلك اللحظة ، التى صاحبتها سبعة شهور تطاردها كاللعنة المقيمة . لماذا تركته يفعل بها ما فعل . تقول لنفسها انها لم ترض . ولكنها ترد وتقول : ولكنى لم أرفض فليلعننى الله فى كل كتاب أنزل لأنى لم أرفض . تضرب رأسها فى الحائط وتقول ، كنت عارفه أنه حرام وعيب . لم تقاوميه كما يجب . لم تصرخى وقلت الفضيحة . وها قد أتتك الفضيحة الكبرى . انفضحى اذن ياعزيزة واشبعى فضيحة فلولا أنك ضعفت لحظة لما حدث ما حدث . لحظة . لحظة ضعف واحدة منها هى التى قاومت طبيعتها حين رقد عبد الله رقدته التى لم يقم منها ، قاومت الليالى التى كانت

تريده فيها ولا تستطيع ، أيكون هذا هو السبب فى أنها ضعفت تلك اللحظة ، اللحظة التى أخذها فيها محمد ابن قمرين .

* * *

كان عليها أن تنتظر حتى تنام الترحيلة ثم تبتعد عنهم قدر ما تستطيع وتلد . ولكن الولادة ليست بالارادة . بدأت العواصف المتلاحقة تجتاح بطنها ولم يلبث القرن أن طش ، وجيرانها فى الفراش والعزال ، وجيران جيرانها ومعظم النـاس لا يزالون مستيقظين . جارتها تسألها ما بها وملابسها غرقى مبتلة وفى بطنها نار فتقول : رأسى .

وكان لابد مما ليس منه بد . فما لم تلحق نفسها . فستلد وهى فى مكانها تحت سمع الترحيلة وبصرهم أجمعين .

وقامت منحنية ، ولم يأبه أحد لقيامها فقد حسبوها تريد أن تفعل مثلما يفعل الناس . وما كادت تبتعد عنهم بأمتار وتغيب قليلا فى الظلام حتى بدأ الطلق يثنيها ويفردها . ومع هــذا فلم تنس البيضة التى استلفتها ولا قطعة الصفصاف الجـافة التى احترق نصفها كانت كل منهما فى يد .

وظلت تمشى حتى وصلت حافة الخليج ، وظلت تمشى على الحافة حتى لم تعد قادرة على المشى . وكل هذا ولم تكن قد ابتعدت عن الترحيلة كثيرا ، كانوا على مرمى السمع منها ، تصلها أصواتهم ولولا الظـلام الرابض بينها وبينهـم لعرفوها وعرفوا ما هى مقدمة عليه .

ووضعت قطعة الصفصاف الجافة بين أسنانها ، وجلست

القرفصاء ، وكلما عوى الطلق المتلاحق فى جنباتها انغرزت أسنانها لآخرها فى الخشب الجاف وتقبضت يدها تعتصر طين الخليج حتى تقذف به وقد فقد ماءه وجف وتجمد .

وأيضا لم تنس ما يجب عليها عمله . فما كاد رأس الجنين يطل حتى كسرت البيضة ومضت توزع محتوياتها الزلقة علها تفلح فى زفلطة الرأس وخروجه .

وانساب الجنين فى النهاية ..

انساب مرة واحدة ، وكأنما انسابت روحها معه فقد داخت قليلا ثم غابت عن الوعى برهة . برهة وجيزة فقط ، ولكنها حين عادت الى وعيها ، سمعت ، حقيقة سمعت زقزقة خافتة . زقزقة الجنين ما فى ذلك شك . ومرة واحدة خرجت منه صرخة . صرخة خيل اليها أنها ملأت الدنيا كلها وسمعها الناس أجمعون .

وهى لم تكن قد جهزت نفسها لهذا الوقت . كل ما كان يهمها أن تتخلص من هذا الورم الخبيث الذى أضناها طويلا . ولتتركه بعد هذا أو ليحدث له ما يحدث . وها هو ذا الورم بعد ما تخلصت منه يصرخ ويهدد بالفضيحة الكبرى . ابن سبعة شهور ولكنه حى ويصرخ . ومدت يدا مرتجفة غير مستقرة وظلت تعبث بالكتلة البشرية الحية حتى وصلت الى فمها ، وانزلقت أصبعها الصغيرة رغما عنها ووصل فى الفهم . فم . فم حقيقى لرضيع ليس فيه أسنان ، فم ما كاد يحس بأصبعها حتى بدأ يتحرك تحركات معينة ، ويرضعه. رضع الطفل أصبعها للحظة . لحظة خاطفة ، ولكنها كهربتها ، من هذا الجحر اللحمى الصغير انساب الى أصبعها ثم الى ذراعها . ثم

الى كيانها كلها احساس غريب عارم . وكالوهج الخاطف أدركت أنها رغم كل شيء ، ورغم ما لاقته من مصائب ، فهذا الرضيع ابنها وهى أمه . وتركت يدها فمه وراحت تعبث وتحاول أن تقرب الرضيع منها .

لم تكن هى التى تتصرف اذ لم تكن هى التى تفكر . هى فى الواقع كانت لا تفكر بالمرة ، كانت وكأنما ذراعها هى التى تتحرك وتجذب الرضيع اليها من تلقاء نفسها .

ولكن كل هذا لم يستمر سوى لحظة . بعدها صرخ الطفل . وارتدت يدها بسرعة الى الفم تقفله ، وحاولت الفتحة الصغيرة أن تتملص من الأصابع الموضوعة فوقها فازداد ضغط الأصابع . وخافت أن ترفع يدها فيعود الى الصراخ ، وهكذا بقيت يدها .

ومرة واحدة أفاقت عزيزة لنفسها فوجدت يدها ميتة على فم الطفل ، ووجدت الطفل ساكتا ساكنا لا حراك به . وهتفت فى صوت مبحوح خائف مرتعش .

— يالهوى .

ومكثت قليلا فى مكانها . جامدة لا تتحرك ، غير أنها أخيرا تحركت ، خائفة مرتعشة ، كل همها أن تبتعد ، تحركت زاحفة على بطنها الى فراش قش الأرز الذى تنام عليه .

كان جيرانها والترحيلة قد ناموا . ولم يشهد قالب الحجر الأحمر الذى تضع رأسها عليه دموعا ، ولم تسمع أم الحسن جارتها فى الرقاد أنينا ، وأيضا لم تنم ، فطوال الليل كانت تحس وكان

لقطار الدلتا ظل يدفعها الى تصـادم المحطـة ، وأنه يفعصها بين حديده وحديد التصادم .

وقبل شروق الشمس ، وبجبروت مذهل ، كانت تمسك خطا مع الأنفار ، وظهرها محنى ، وعيناها زائغتان تبحثان عن اللطع .

* * *

وسار كل شيء كما أرادت تماما ، حتى حين جاء المأمور وبدأ قلبها يدق وعرقها ينبت تمالكت نفسها بقوة ومرت من أمامه ، وفاتت عليه دون أن يستوقفها . وحين جاء البوليس لم يشك أحد فيها ، بل حتى لم تستدع للمثول بين يدى وكيل النيابة . كل ما فى الأمر أنها ، قبيل الغروب وهى عائدة مع الأنفار من الغيط ، عنّ لها أن تغير طريقها وبدلا من الذهاب الى مقر مكان الترحيلة عن طريق الترعـة ، تذهب عن طريق الخليج ، لماذا لم تكن تدرى . بدأت تسير فعلا فى اتجاه الخليج ، ولكنها ، اقشعرت فجأة وعادت مسرعة لتذهب عن طريق الترعة .

وتعشت مع الأنفار ، والغريب انها وجدت شهيتها متفتحة على غير العادة ، وأوت الى فراشها القش ومخدتها الحجرية وكل ما يشغلها هو فرحة الافلات ، وكأن تلك الفرحة قد تولت تخدير جسمها وكبت كل آلامها .

واستيقظت مع الأنفار فى الفجر ، ومع شعاعات الشمس الأولى بدا لهـا ان الهم قد انزاح عن كاهلها الى الأبد ، وانها أصبحت طليقة حرة تخلصت دون أن يشمت فيها أحد أو يعيرها أحد من الورم الخبيث الذى كاد يوردها حتفها . بدا لها الصباح جميلا

جدا ، وبدا لها أن كل شيء سوف يسير كما أرادت تماما وكأن الله معها .

وفى طريقها الى الغيط ، خرجت لأول مرة عن العزلة المقيتة التى كانت قد فرضتها على نفسها ، وقد أصبحت منتشية باحساسها أن لم يعد فيهــا شيء يمنعها من أن تكون مثل ســائر الناس ، تخالطهم ويخالطونها ، وتحادثهم ويضحكون معها ...

لوية بوزها انفكت ، ورأســها غسلته وسرحت شعرها ربما للمرة الأولى منذ شهور ، وبدت عزيزة مرحة منطلقة على غــير عادتها حتى أنهــا شاركت الأنفار فى غنائهم أثنــاء العمل ، حين يشتركون فى تزويج نفر منهم لبنت ، وتناجيه ويناجيها ثم يزفهم الأنفار جميعا بنشيد جماعى .

* * *

غير أن كل شيء لم يسر تماما كما أرادت عزيزة .

فبعد يومين بدأت تسخن وتحس بدق متواصل يفتت مفاصلها.

وفى اليوم الثالث بدأت السخونة تتحول الى نيران تتصاعد من جلدها وجوفها .

كانت قد أصيبت بحمى النفاس .

ولكنها لم تكن تعرف ماذا أصابها ، ولا رأت أبدا أية علاقة ممكن أن تكون بين ولادتها فى العــراء على حافة الخليج وبين ما يحدث لها . كل ما أحسته أن جسدها بدأ يخونها ، وأنه لم يعد يطاوعها فى يقظتها أو فى منامها ، ولم تعد قادرة على صلب حيلها فى الخط .

ولكن آلام الدنيا كلها وحرارتها كان لا يمكن أن تثنيها عن العمل ، فاستمرت تسرح وتروح وتمسك الخط مثلها مثل بقية الأنفار ، تدوخ وتزغلل الدنيــا فى ناظريها وتغم عليها نفسها ، ولكنها تضغط على نفسها بجبروت وتقاوم وتنحنى وتعمل .

وبالضبط لم تدرك ماذا حدث فى اليوم الرابع أو الخامس . كانت فى صف الأنفار يقولون لها : مالك ياعزيزة فلا ترد . وفجأة وقعت فى الخط ، وأفاقت لتجد نفسها تحت (الظليلة) . ولكنها ما كادت تفيق حتى بدأت تصرخ وتزعق وكأنهم يغــدرون بها ويمنعونها من أن تعمل . بل قامت فعلا تريد مواصلة العمــل ، ولكنها داخت وارتعشت ساقاها تحتها ووقعت . وأفاقت لتجــد نفسها مبلولة بالماء الذى رشوه عليها .

ورغم حلقها الجاف ، ورعشتها المســتمرة وأزيز الحمى فى جسدها فقد كانت لا تزال فرحة أن خطتها تمضى بنجاح ، وأن أحدا لا يعرف ولن يعرف أنها الفاعلة .

* * *

ولكن خطتها قدر لها أن تفشل عن طريق لم تكن قد حسبت حسابه .

فالحمى بدأت تشتد ..

وبدأت عزيزة تخرف .

أم الحسن جارتها فى الرقاد بدأت تسمع كلاما غير مفهوم عن جذر البطاطة وابن قمرين وعبد الله والجنين الذى لم يكن يريد أن يكف عن الصراخ .

ومن كلماتها المتناثرة ، وهمسات النساء واضافاتهن تكاملت حكايتها وأصبحت خبرا .

وبدأ خبرها ينتقل من جار الى جار ، ويتسلل حول القفف ، ويخطى المواقد وينبش بين عيدان القش ويتوقف لدى كل أذن صاغية .

ولم يترك الخبر أذنا لم يتوقف عندها . ولم تترك اذن الخبر الا وأوقفته وفحصته وترددت كثيرا بين تصديقه وتكذيبه . حتى آذان الصنج سمعت به .

ومع ذلك فلم يتعد الخبر ذلك الفضاء الكائن خلف الاصطبلات أبدا . حرص الجميع على كتمانه وكأنه قد أصبح سرهم كلهم ، أو عورة كل منهم التى يجب أن يبقيها بعيدة عن أعين النـاس وألسنتهم وآذانهم . حتى تعليقاتهم الخاصة عليه بينهم وبين أنفسهم كانت خفيفة ومقتضبة ، الرجال كانوا يكتفون بمصمصة الشفاه وقد كفتهم عزيزة وما حدث لها وما لا يزال يحدث لها أى كلمة زائدة أو تعليق خارج . والنساء والبنات طرحن الحكاية جانبا وأصبحت عزيزة هى كل همهن ، يطعمنها ويسقينها ويعاونها فى الذهاب الى الغيط والمجيء ويمسكن خطها بدلا منها ولا يجعلن لها من عمل الا الانحناء حين يمر المأمور أو الخولى .

وحين بلغ الريس عرفة الخبر ، وتشـاور مع كبار السن من الرجال ، رأوا أن تكف عزيزة عن العمل تماما وترقد .

ولم توافق عزيزة أبدا الا بعد أن أخبروها أن أجرتها لن ينالها

سوء وأن يوميتها سوف تحتسب ، وكان خوفها الأكبر اذا رقدت أن ينقطع أجرها فيموت عبد الله وأولادها من الجوع .

وحين رقدت عزيزة وقد اطمأن قلبها على سريان اليومية بدا وكأنما المرض كان يختزن قوته كلها لهذه اللحظة ، فقد أحست ، وكأنما فجأة ، أنها فعلا مريضة وأن المرض قد استبد بها الى درجة لم تعد تستطيع معها أن ترفع ساقا أو تحرك يدا .

١٥

مع أن المأمور كان هو أول من عرف بحكاية عزيزة الا أن خبرها كان قد وصل الى العزبة الكبيرة حتى قبل أن يصلها هو . ذلك أنه الخبر الذى انتظره النـــاس فيها طويلا وتلقفوه تلقف الملهوف ، فلم يكن فيه حلا للغز الذى حيرهم فقط ولكن الحل أيضا على وجه مرض ، الحل كما أرادوه تماما وخافوا ألا يكون . حل بردت به صدورهم وهجعت خواطرهم وأعاد لهم الثقـــة فى أنفسهم وأخلاقهم ونسائهم وقيمهم ، تلك الثقة التى ظلت حائرة مزعزعة تحوم حولها الشكوك ، وتتطاول عليها الألسن منذ اللحظة التى عثر فيها عبد المطلب الخفير على اللقيط .

ومن الفرحة التى قوبل بها الخبر فى العزبة كان يخيل اليك أنه لو لم تكن هناك عزيزة وجذر بطاطة لتكفل واحد منهم أو أكثر بتأليف عزيزة من عنده وألصق بها ما شاء من جذور البطـاطة أو كيزان الأذرة ، ولسرت حكايته ودارت وأصبحت فى النهاية حقيقة ، فأن يعود للناس ايمانهم شىء ضرورى ، فان لم يعد على هيئة حقيقة فليعد شبه حقيقة ، اذ الايمان سوف يتكفل بها ويجعل منها حقيقة ، والناس تريد الايمان على أية صورة ، فان لم تجد ما تؤمن به فى الواقع آمنت به فى الحكايات .

هللت العزبة الكبيرة للخبر بفلاحيها وأسطواتها وكل موظفيها وحتى بالسائرين فى طرقاتها . وكلما التقى أحدهم بالآخر صرخ

فيه : مش قلتلك .. علىّ الطلاق أنا م الأول قلت انهم الترحيلة ـ جالك كلامى .

ويؤمن الآخر على حديثه بل ويكاد يقسم هو الآخر بيمين الطلاق ، وينتقل بهما الحديث من اللقيط الى الترحيلة أنفسهم باعتبارهم أصحابه والمسئولين عنه .

ذلك هو ما حدث ، فما كاد أهل العزبة يطمئنون على سلامة أنفسهم حتى بدأوا يستديرون للغرابوة الذين كانوا يتجاهلون وجودهم الى تلك اللحظة ، ويعيشون على أرض التفتيش يكاد لا يحس بهم انسان . بدأوا كلما ذاع خبر عزيزة ولقيطها وحكايتها يصبحون محط أنظار الناس ومحل اهتمامهم ، ولكن أى اهتمام ؟!

الفلاحون الكبار والمزارعون لم يفعل الخبر أكثر من أن هيج كامن تقززهم من الغرابوة واشمئزازهم منهم ، فأصبح الحديث عنهم يسبقه أو يتبعه سيل من الشتائم والبصقات . كان الترحيلة فى نظرهم حثالة آدمية تهبط على تفتيشهم مرة أو مرتين فى العام كالوباء الذى لا مفر منه . فما بالك حين يكتشفون أن تلك الحثالة قد صدر عنها شيء حرام كهذا الذى حدث منـــذ أيام حاولت اخفاءه والصاقه بأهل العزبة ، الترحيلة أنفسهم كانوا يكادون يصبحون شيئا حراما ، وكأن الناس جميعا مخلوقات حلال وهم وحدهم مخلوقات حرام ، أية بشاعة يصبح عليها الحرام اذا ارتكب حـــراما ؟!

نساء الفلاحين هن الأخريات كان لهم مثـــل آراء أزواجهن وآبائهن ، بل أغرب من هذا ، كن أكثر حماسا وأكثر تحاملا وكأنهن

يستكثرن على الترحيلة أن تحمل احداهن مثلما يحملن ، وأن تلد مثلما يلدن ، حتى لو كان حملها وولادتها حراما فى حرام .

* * *

وفى عودة مسيحة أفندى الى بيته فى ذلك اليوم كان فرحا على غير العادة ، بل دفعه الفرح الى التهور وآلى على زوجته أن تذبح لهم فى ذلك اليوم وتوسع .

وزاط دميان للاقتراح ، لا لأنه سيأكل الرؤوس والجناحين كعادته كلما ذبحوا دجاجا ، ولكن لأن معنى هذا أن يتاح له أن ينظف الريش عن الطير المذبوح ، وأهم من هذا سيتاح له أن يفتح (القوانص) بالسكين ، وفرحته الكبرى كانت حين يخرج أحشاء الدجاجة أو البطة ويتناول منها (القونصة) ويجرى عليها السكين فيقسمها نصفين ويتحسس الحصى الأصفر الذى يعثر عليه داخلها ثم يزيل قشرتها الداخلية التى تطلع فى اليد مرة واحدة دون تمزق وبلا مجهود وتصبح القونصة بعدها نظيفة تكاد من نظافتها أن يلتهمها دميان التهاما وهى نيئة .

وضحكت لنــده لمداعبات أبيها ، وقليــلا ما كان يداعبها ، ووجدت الفرصة مناسبة فطلبت منه أن يسمح لها بزيارة أم ابراهيم زوجة أبو ابراهيم الفقى اذ مرضت المسكينة وأرسلت تطلبها . والعادة كانت قد جرت ألا تخرج لنده الا لزيارة أسرة المأمور أو فى أفراح كبار الفلاحين اذا دعيت الى فرح ، ولكن مسيحة أفندى كان فى الحالة التى ممكن أن يسمح فيها بأى شىء ولو كان خارقا للعادة . ألقى نظرة جانبية على أم لنده وكأنه يطلب رأيها ،

فرفعت حاجبيها حتى بدا أن رقبتها الرفيعـة ترتفع هى الأخرى وتصبح أكثر طولا وقالت : والله أنت حر .

فقال مسيحة أفندى بتهليل : خلاص .. روحى ياست لنده بس خدى بالك لحسن تعديكى حاكم بيوت الفـلاحين مليانه مكروب .

* * *

وكان فكرى أفندى المأمور أجدر الناس بالفرحة فهو الذى بالفطنة والسليقه أشار الى الترحيلة من أول لحظة وأكد أنهـم الفاعلون ، وهو الذى ظـل يدأب ويسعى حتى كللت مساعيه بالنجاح وتحققت فراسته وعثر على الجانية فى الترحيلة .

ولكنه حين عاد الى العزبة لم تكن على سيماه معـالم فرح أو بشائر انتصار ، بالعكس ، كانت ملامحه غائمة ، وفيها خيبة أمل وبوادر تفكير .. حتى حين قابله محبوب البوسطجى الذى كان قد عاد الى الحياة مع زكية بعد ما تكفل المأمور برد عقلها واصـلاح ما بينهما حتى أنه جعلها تقبل أمامه أقدام محبوب ، وفعلت هذا ومحبوب يستغيث ويرفض قائلا انها ستتخلص منه كل هذا حين تنفرد به فى البيت بعيدا عن الناس . حتى حين قابله محبوب وهو لا يزال معلقا حقيبة الخطـابات الى جنبه مع أن عمله كان ينتهى بعـد فوات قطار الرابعة ولكنه كان يحب ألا يراه الناس الا وتحت ابطه الحقيبة وكأنما ليميز نفسه بشىء عن بقية الناس . حين قابل محبوب ورآه مغموما أحب أن يسرى عنـه كمادته وقال له انه من يوم الحكاية اياها بدأ يتعلم القراءة والكتابة على يد الشيخ أبو ابراهيم

الفقى حتى لا تستغفله زكية مرة أخرى ، لم يضحك المأمور ، ولا حتى رد على محبوب أو حفل به ، بل ما كاد يهبط من فوق الركوبة حتى توجه الى بيته فى الحال وقال لزوجته انه يريد قهوة ، وحين جاءت وجدته نائما على الكرسى فلم تشأ ايقاظه .

وفى اغفاءته رأى فكرى أفندى نفسه نائما مع عزيزة تحت الظليلة والأنفار كلهم يتفرجون عليه وعليها ، وكان زوجها ببطنه المنتفخ واقفا ممسكا خطا مع الأنفار ، وكان هو الآخر يتفرج ولا يفعل شيئا أكثر من أن يقول : حرام عليك ياحضرة المأمور .. حرام عليك .. دى عيانه .

وأفاق فكرى أفندى مختنقا وكأنه يعانى من كابوس .

* * *

ظلت اللعنات تنهال طوال النهار وتنصب على الترحيلة وتندد بهم ، حتى من جنيدى صاحب الدكان والوحيد الذى كان يستفيد من وجودهم فى التفتيش ، كان يلعنهم حتى فى وجودهم ، ويبدى اشمئزازه من أيديهم الكثيرة الممتدة اليه قائلا لهم انه قد أصبح يستبشع حتى مجرد لمس نكلهم وملاليمهم وكأنها هى الأخرى لقطاء جاءت من حرام ، وذاهبة الى حرام ، وملمسها خطيئة .

أولاد الفلاحين وصبيانهم فقط هم الذين دونا عن قاطنى التفتيش كان لهم رأى آخر فى المساء . فى النهار فعلوا مثل كل الناس وكلما صادفوا امرأة من نساء الترحيلة كانوا يأخذون فى زفها والتطبيل على صفيحة قديمة وراءها ، أما حين جاء الليل فقد أصبح لهم رأى آخر . وأولاد العزبة ككل الأولاد يحبون الليل واللعب

فيه . الليل ، حين يتشبع الفضاء المحيط بالعزبة بضوء القمر ووسوسة الليل ونقيق ضفادعه والرائحة التى يضفيها الظلام على الأرض ، حتى الزرع الأخضر تصبح له فى الليل رائحة وكأنه يدخر أزكى روائحه لليل . ينسى الأولاد حينئذ أحقاد النهار وخلافاته ومشاحناته ، ينسون حتى آباءهم وزجرهم ، وينسون اليوم الشاق الآتى ، وكأنهم لا يعودوا يذكرون الا أنهم أبناء لحظتهم ، أبناء الليل والأرض واخوة الضفادع والنجوم وأحباء ذلك القمر الحنون النظيف ، ويلعبون . يلعبون الاستغماية وضربونا مونا لما عمونا وعسكر وحرامية والحجر دقدق وسرح . يبدأون اللعبة وفى دورين يكونون قد زهدوا فيها فينتقلون بخفة وبساطة الى غيرها ، وغيرها ، ضاحكين صاخبين . لا يعكر صفوهم معكر .

فى تلك الليلة اقترح واحد من الأولاد على زملائه أن يذهبوا ويتفرجوا على الترحيلة وأولادها وهم يلعبون . وفوجىء صاحب الاقتراح نفسه بالضجيج العظيم الموافق الذى لاقاه اقتراحه ، اذ هو قد اقترح هذا وهو خائف ، ذلك أن من الأمور المتعارف عليها بين الفلاحين أهل العزبة أن من المستحيل على أولادهم أن يلعبوا مع أولاد الترحيلة أو حتى يقتربوا منهم وكأنهم سيصابون بالجذام لو فعلوا هذا . ولم يكن أحد يسأل عن سر ذلك التحريم أو يحاول مناقشته ، فما أكثر ما يحرم على الأطفال والأولاد ولا يستطيعون مناقشته ، وهل يستطيع أحد أن يناقش أباه حين يقول له هذا عيب ، أو هذا حرام . حين تذكر كلمات كهذه فعلى الولد أن يطيع وليس عليه أن يقول ثلث الثلاثة كام .

هلل الأولاد لاقتراح زميلهم موافقين مع علم كل منهم أنه شيء عيب لا تصح الموافقة عليه . وحين تبينوا أنهم جميعا موافقون متحمسون ازدادوا خفة وحماسا لتنفيذ الاقتراح وكأنه لم يعد حراما وكأنه الشيء الحرام اذا وافق عليه الجميع أصبح حلالا زلالا لاشك فيه .

وما أسرع ما أصبحوا يتسابقون ليروا أيهم يستطيع الوصول أولا الى مكان الترحيلة وكأن معجزة تنتظرهم هناك أو كأنهم على الأقل سيرون تلك المرأة التى سمعوا آباءهم وأمهاتهم ينعتونها بأقبح الألفاظ ، ويصمونها بأشنع التهم .

ولكن ، ما أن عبر المتسابقون القنطرة الحجرية التى تفصل العزبة الكبيرة عن مبانى الادارة والسراية والمخازن والجرن والاصطبلات ، ووصلوا الى ما خلف الأخيرة ، ورأوا فى الظلام المقاطف والقفف والزلع مرصوصة متناثرة كشواهد وضعت خصيصا لتدل على مكان الترحيلة ، ما أن رأوا هذا حتى كفوا عن الجرى ، ثم راحوا يتسللون الواحد وراء الآخر على أطراف أصابعهم ليصلوا الى حيث يلعب أولاد الترحيلة لابد فى وسعاية الجرن . وكانوا خائفين جدا وهم يتسللون عبر مكان الترحيلة وكأنهم مارون على قبيلة من قبائل الجان حطت رحالها ونامت فى ذلك المكان . ومع خوفهم الشديد فلم يستطيعوا كتم ضحكاتهم ، فقد سمعوا أصوات شخير كثير متصاعد من الترحيلة شخير غير منتظم تماما كنقيق الضفادع فى الخليج الذى يجاورهم وأرض الأرز ، والذى أضحكهم أن الضفادع كانت تنقنق فيبدو وكأن

الترحيلة ترد عليها بشخيرها ، وكلما شخرت الترحيلة ردت عليها الضفادع بالنقيق .

وفعلا كان أولاد الترحيلة يلعبون فى وسعاية الجرن . بعيدا عن آبائهم الراقدين متعبين وبعيدا فى الوقت نفسه عن المكان الذى يلعب فيه أولاد العزبة . لم يحرم أحد عليهم الاقتراب من أولاد العزبة وهم يلعبون ، ولكن ، من مجرد معاملة الفلاحين لهم كانوا يدركون أن هذا بالتأكيد شيء محرم وأن واجبهم أن يبتعدوا عن العزبة وأولادها قدر الطاقة .

وقف أولاد العزبة من بعيد يتفرجون . وكانوا يتوقفون هنيهة وكأنهم يتوقعون معارضة أو زجرا ، وحين لا يجدون ، يتقدمون. الجرن واسع كبير ، فيه أكوام هائلة من تبن ماكينة الدراس يكاد يصل فى ارتفاعه الى ارتفاع السراية نفسها . وفيه أكوام ضخمة من القمح ، وفيه نوارج أتى بها الفلاحون الذين يرفضون أن يدرس قمحهم فى ماكينة الدراس ، والذين آثروا أن يدرسوه على النوارج ولو أخذ أياما أكثر ، فقمح النورج كما يقولون مبروك ، والماكينة على الأقل تلتهم ثلث المحصول بسرعتها الفائقة المشئومة . وأولاد الترحيلة كانوا قد اختاروا للعبهم بقعة فسيحة غير مشغولة تحيطها أكوام القمح والتبن من كل الجهات . وخلف تلك الأكوام وداخلها احتشد أولاد العزبة يتفرجون.وظلوا وقتا طويلا لا يفهمون شيئا مما يدور أمامهم وكأنهم يتفرجون على أولاد من جنس آخر

أو ملة ثانية ، فلغتهم غير مفهومة ، وألعابهم غريبة ، وحتى ضحكهم يبدو مختلفا تماما عن ضحك الآدميين .

ولكنهم بعد حين بدأوا يدركون بعض ما يدور أمامهم . فأولاد الترحيلة كانوا على ما يبدو يمثلون ، وقد وضع شاب منهم شيئا كمشنة الخبز فوق رأسه ليمثل بها دور بائعة جبن ، وشاب آخر كان يمثل دور عسكرى ، وحوار بالأغانى يدور بين العسكرى وبائعة الجبن ، العسكرى يتمحك طالبا نقودا والبائعة تتبغــدد وتحاول أن ترشيه بقطعة جبن ، معددة مزاياها ، والشاويش يرفض ويريد نقودا ويزجرها ويوبخها بصنعة لطافة . لغة غريبة وطريقة غريبة فى اللعب يتبعها هؤلاء الأولاد ، ولولا لفظة (شبنة) التى عرفوا أنها (جبنة) لما كانوا قد فهموا شيئا من كل هذا . الغرابوة اذن لهم ألعابهم هم الآخرون ، ألعاب لا يعرفونها هم ، لماذا اذن يزدريهم آباؤهم وسكان العزبة كل هذا الازدراء . ليتهم يرضوا أن يشاركوهم اللعب .

كان هذا مجرد خاطر عنّ لأولاد العزبة جميعا وكأنما عنّ لهم فى نفس واحد ، وكالعادة انتقل الخاطر على الفور من أذهانهم الى ألسنتهم ومن ثم الى أجسادهم وأرجلهم ، فتركوا أمكنتهم وتقدموا الى أولاد الترحيلة . ولم يأخذ الأمر أكثر من كلمة واحدة . تلعبوا معـــانا . نلعب معاكم . وتصاعدت على الفور تهليلة كبيرة من أولاد العزبة والترحيلة معا ، تهليلة جاءت بعبد المطلب الخفير من عند الخليج وجعلته يطير وراءهم ويطاردهم حتى أجلاهم عن الجرن . ولكن أولاد العزبة كانوا ماكرين فقد اقترحوا على أولاد الترحيلة

أن يذهبوا جميعا ويلعبوا وراء ماكينة الرى فهناك مكان متسع بعيد عن عبد المطلب وبعيد عن العزبة وبعيد حتى عن مكان الترحيلة.

وفى اللعب اختلط الأولاد بالأولاد . واكتشف أولاد العزبة أن الأولاد الآخرين ملامحهم مختلفة عن بعضهم البعض وليس لهم شبه واحد كما كانوا يعتقدون قبلا ، وملامحهم سمحة وطيبة ، بل ويضحكون أيضا ، ولكل منهم اسم ، بل سرعان ما حفظوا بعض أسمائهم . مصباح وبدوى وحسن والولد الأسمر سنجر ، ولهم مضحك ، ولد رفيع مثل عود الملوخية ولكنه يميت من الضحك .

وفى تلك الليلة عاد الأولاد الى بيوتهم فى العزبة وهم لا يريدون العودة ، فقد سعدوا بلعبهم مع أولاد الغرابوة أيما سعادة ، وتعلموا منهم ألعاب جديدة . لعبة عشرة وعشرين مثلا ، حيث يضع أحدهم طاقيته فوق كومة تراب ، ويقيسون عشر خطـوات من الكومة وعشرين خطوة من الناحية الأخرى ، ويقف متسابقان عند كل نقطة فاذا ما استطاع صاحب العشر خطوات أن يجرى من نقطته الى الكومة ويختطف الطاقية ويرجع الى مكانه قبل أن يلحق به زميله الذى يبعد عن الكومة عشرين خطوة كان هو الغالب ووقع زميله .

عاد الأولاد يتسللون الى مضاجعهم من سكات وفى عزمهم الأكيد أن يذهبوا كل ليلة ويلعبوا مع أولاد الغرابوة ، وفى عزمهم الأكيد أيضا أن يخفوا هذا عن آبائهم حتى لو فتن عليهم عبد المطلب الخفـير .

١٦

على ضوء لمبة نمرة خمسة نظف زجاجها بعناية حتى لا يحجب أى قدر ولو ضئيل من النور ، موضوعة على رف خشبى فى أعلى الحائط ، كانت الحجرة تبدو أنيقة مرتبة على غير ما جرت به العادة فى بيوت الفلاحين ، فالسرير البوصة ونصف المرتفع الذى يكاد يحتاج الى سلم للصعود عليه نظيف ومعتنى به ، و (دايره) الأسفل يحجب ما تحته من كراكيب وخـزين ، و (دايره) الأعلى يزين الناموسية ، وفى الواجهة دولاب وان كانت مرآته مشروخة الا أن الشرخ رسم عليه بالاسبيداج شجرة ذات أزهار وأثمار لتخفى الشرخ . وبجوار السرير مقعد بمسندين له كسوة من قماش أبيض بولغ فى تزهيره أثنـاء الغسيل . والأرض وان كانت جرداء بلا خشب أو بلاط الا أنها مكنوسة ومرشوشة ومغطاة بطبقة رقيقة من الرمل . والقلل موضوعة فى الشباك عليها غطيانها المعـدنية وفوقها شاشة زيادة فى الحرص على النظافة والأناقة ، بالاختصار كل شيء فى الحجرة يحاول أن يبدى أحسن ما فيه .

وكان بالحجرة شخصان لا ثالث لهما ، أم ابراهيم نائمة على السرير فى أتم صحة وأبهى منظر وان كان من يشاهدها ويرى كيف تتكلم وتتأوه يظن أنها مريضة فى عنفوان المرض ، ولنده جالسة على الكرسى الوحيد بالغرفة مبهورة بالبيت الغريب الذى تدخله لأول مرة ، تتأمل فى دقة النساء كل شيء فيه وتعجب له هى التى

لا تغادر بيتهم وحجراتهم الا فى النادر حتى أصبحت مجرد زيارتها لبيت آخر ولو بيت الشيخ أبو ابراهيم الفقى حدثا تستحق من أجله أن تجلس مبهورة الأنفاس .

كانت أم ابراهيم هى التى تقوم بالعبء الأكبر من الحديث مع أن الحديث نفسه كان قليلا . ولم يكن كلام أم ابراهيم يخرج متصلا متسلسلا كعادتها ، كان يتقطع وكأن صاحبته مشغولة بشىء أو تتوقع شيئا . وكانت لنده تنصت أغلب الأحيان ، وأحيانا تشارك فى الحديث وترد بجملة أو بضحكة قصيرة عصبية وكأنها خائفة من شىء أو تريد أن تخاف من شىء . والواقع أنها كانت فى أبهى مظهرها ، وجهها أبيض محمر قد طلى بطبقة خفيفة جدا من البودرة لا تكاد تلحظها العين ، وشعرها لامع مسرح بحيث تتدلى خصلة منه على جبهتها ، وأنفها وملامحها ، وتقاطيعها وكل شىء فيها أنيق جميل رائع فى اناقته وجماله لا يكاد يقاس أو يقارن بالحجرة المتواضعة الجالسة فيها ، خاصة وهى ترتدى أحسن وأجد فساتينها الثلاثة ، ذلك الذى فصلته أثناء زيارتها الأخيرة لأقاربها فى شبرا مصر ..

كانت أم ابراهيم قد بذلت جهود الجبابرة خلال الأيام القليلة التى مضت على تلك الكلمة التى أسرها اليها أحمد أفندى سلطان عند الجامع . كانت العقبات التى أمامها ضخمة وليس من السهل التغلب عليها ، فمجرد الانفراد بلنـــده مشكلة فما بال الحديث الطويل اليها ، والحديث الطويل ضرورى ، فلنده وان كانت قد جاوزت سن الزواج بسنين الا أنها من تلك الناحية خام من الدرجة

الأولى ، ثم انها متعلمة وتفهم ، وعلى الرغم من خبرتها فأم ابراهيم جاهلة لم تغادر أرض التفتيش قط ، الحديث اذن الى لنده أمر محفوف بالمخاطر خاصة اذا كان يدور حول أمور دقيقة ومخجلة مثل تلك .

ولكن أم ابراهيم استطاعت أن تتخطى العقبات ، وعلى عكس ما توقعت استجابت لنده لكلامها بشكل لم تكن تتخيله ، فأم ابراهيم كانت قد دخلت اليها من باب لا يخيب ، باب الرجال وأسرارهم ، الرجال ، ذلك العالم المغلق البعيد كل البعد عن لنده ومسامعها ، هؤلاء الآدميين الخشنين الذين يبدون أشـــد قوة وضراوة من أبيها واخوتها الصغار والذين حين تراهم تجفل رغما عنها وتكاد تجرى . بدأت أم ابراهيم تحدثها عنهم ، بل عن أخص خصائصهم حديث ، العالمة الخبيرة ، حديث الجسد الذى لا يقوله الرجال أبدا الى النساء وانما يقوله الرجال لبعضهم ، ولا تتناقله النساء بينهن الا همسا والا على انفراد ، الحديث الذى لا يخيب فى جر الألسن للحديث وفك عقد الخجل . ومن أول كلمة استجابت لنده وبدأت تصغى محاذرة أن تساهم من قريب أو بعيد فى الحديث، ولكنها بعد قليل بدأت تدعى الجهل أحيانا وتسأل ، ربما لتتأكد وربما لتستمتع بالكلمات تلقى على مسامعها مرة أخرى . ثم بدأت تعلق تعليقات سريعة خجلى ، وأم ابراهيم ترقبها أثناء هذا كله فى دهاء الصائد الماهر الذى ينتظر بصبر الى أن تبتلع ضحيته الطعم ثم يبدأ يجذب برفق وهوادة ودون أن يفزع الضحية أو يروعها . وهكذا راحت أم ابراهيم تنتقل من الحديث عن الرجال بشكل عام

الى الحديث عنهم بشكل خاص ، وتفرق بينهم ، وتصنف ، وتضع القوى فى جانب ، والفحل فى جانب ، والضعيف الخائب فى جانب آخر . وكان من الطبيعى جدا أن تبدأ فى التطبيق وأن تذكر على سبيل المثال بعض الرجال المعروفين فى التفتيش ، وأن يأتى ذكر أحمد سلطان ، وأن تتوقف عنده أم ابراهيم طويلا وتصف ما يشاع عنه وتضعه كأعتى مثل للرجل والفحل والذكر . هنا بدأت لنده تخجل وتكاد تغلق أذنيها عن السماع ، ولكن الحاح أم ابراهيم كان لابد أن يتغلب على خجلها ويفتح أذنيها البكر ، الحاح خبيرة يبـدو وكأنه دلال وتقـل ، الحاح من تعرف كيف تتكلم ثم تصمت حين يبلغ حب الاستطلاع بسامعتها أشده ، وكيف تقطع الحديث فجأة اذا رأت الخوف الحقيقى الذى يعقبه الرفض يتسرب الى سامعتها من هول ما تقول تاركة للأيام والساعات والتأمل المنفرد والتطلع الى الشيء المحرم الجديد أن تفعل فعلها ، وتلين الحديد ، وتجعل من الممجوج مقبولا ومعقولا ومرغوبا .

وكان أن أصبحت لنده تؤمن بأشياء كثيرة ، تؤمن بأن البنات يمكنهن أن يستمتعن بما تستمتع به النساء ويبقين مع هذا بنات ، تؤمن بأنها تعيسة ومحرومة من أكبر سعادة وأنها ستظل هكذا الى أن تتزوج ، ومتى تتزوج ، الله وحده يعلم ، وتؤمن بأن هناك شيئا لازما لجسد الأنثى هو الرجل ، وكانت أم ابراهيم قد تكفلت بجعلها كلما فكرت فى الرجال تقرنهم فى خاطرها حتما بأحمد سلطان .

عند هذا الحد بدأت أم ابراهيم تغير النغمة ، وتحمل سلامات من أحمد سلطان للست لنده . سلامات كانت تعجب لها لنده أول

الأمر ، اذ أن أحمد سلطان هذا له فى التفتيش سنوات دون أن يرسل لها سلاما أو كلاما . ثم ان السلام الوحيد الذى كانت تهتز له لنده هو السلام حين كان يجيئها من صفوت ، ونادرا ما كان يجيئها من صفوت سلامات .

ولكن أم ابراهيم كانت بارعة ، فكانت توصلها السلام وكأنه شىء من وحى الساعة بلا هدف وبلا تدبير . ثم بدأت السلامات تصبح عن عمد ، ثم فتحت أم ابراهيم للنده قلبها وأخبرتها أنها تريد أن تقول لها سرا خفيا لا يعرفه انس ولا جان ، ولم تبدأ باخبارها الا بعد أن أقسمت لنده بالمسيح والانجيل أنها لن تخبر أحدا . وأعادت القسم لكى يطمئن قلب أم ابراهيم . حينئذ قالت لها أم ابراهيم مبهورة الأنفاس وكأنها الرجل حين يعترف لفتاة ، قالت لهـا ان أحمد سلطان يحبها حبا لا يتصوره العقل . وأنه لا مطمع له ولا هدف أبدا من وراء هذا الحب ، كل ما فى الأمر أنها زارته ذلك النهار حين تعبه جنبه فباح لها فى نوبة ضعف بسره وطلب منها أن تكتمه دونا عن الناس جميعا ، ودونا عن لنـده بالذات ، ولكن للصداقة قيودا وواجبات ، ولم تتصور أم ابراهيم نفسها أنها تعرف شيئا خطيرا كهذا ولا تقوله لحبيبة روحها لنده . وفى أول مرة ضحكت لنده حتى كادت تموت من الضحك ، ضحكا جعل قلب أم ابراهيم يدق بالاضطراب اذ خوفها الأكبر كان أن تأخذ لنده الأمر على محمل الهزل فيفسد تدبيرها ويفسد كل شىء ولنده فعلا كانت قد أخذت الأمر دون أن تلقى اليه بالا كثيرا ، اذ كان شغل أحلامها الشاغل أن تتصور صفوت ابن المأمور وهو

يطالعها بوجهه الحبيب الى نفسها ويقول لها هذا الكلام . ولم تكن تتوقع أبدا أن يأتيها كلام كهذا من ناحيـة أحمد سلطان ، مرؤوس أبيها الذى لا يمكن أن يكون فتى أحلام بنت فى مثل هيأتها ومركزها .

حين أحست أم ابراهيم بهذا غيرت موضوع الحديث فى الحال ولم تحاول مجادلتها أو اقناعها . ولكنها عادت الى الحديث فى اليوم التالى بطريق التلميح والاشارة العابرة ، وفى المساء عادت تطرق الموضوع ، وفى كل مرة كانت تقابل فيها لنده كانت تصف لها فيها حالة أحمد سلطان وما يعانيه من وجد وهيام حتى تأكدت لنده تماما واقتنعت فعـلا أن أحمد سلطان يحبها دون أدنى شك ، ولكنها لم تكن تستطيع أن تفعل من أجله شيئا ، قالت هذا لأم ابراهيم ، وأم ابراهيم بدورها لم تعلق على قولها بشىء ، وانما ظلت تذكره لها كلما اجتمعت بها . ولكنها فى يوم لم تذكر لها شيئا عن أحمد سلطان مما أثار دهشة لنده وعجبها . وحاولت لنـده يدفعها حب الاستطلاع أن تدق على أطراف الموضوع من بعيد ولكن أم ابراهيم لم تستجب ولم تفتح فمها بكلمة واحدة عنه . وكادت الجلسة تنتهى دون أن يرد له على لسانها ذكر ، بل وبدأت تستعد للقيام بحجة أنها لم تطبخ بعد وأن أبو ابراهيم زمانه عاد للبيت . وألحت عليها لنده أن تقعد ، وصممت هى على القيام ، وحينئذ ، وحينئذ فقط ، قالت لنده وكأن الأمر لا يعنيها ان أباها سوف يكلم المأمور لينقل أحمد سلطان من بيته الملاصق لهم الى بيت آخر ، ومع أن أم ابراهيم كانت تعلم تماما أن هـذه كذبة

اخترعتها لندة فى التو واللحظة الا أنها ابتسمت حين سمعت هذا ورفعت ثوبها وجلست. وبدأ بينهما حديث خجل متعثر وكأن كلتيهما تخجل أن تخوض فى موضوع شائك . المهم أن أم ابراهيم أدركت أن حب الاستطلاع بدأ يتحرك فى حنايا لنـــده ، وكانت تعرف أن حب الاستطلاع اذا استبد بالمرأة أصبح سيدها الأعلى الذى يحركها أنى يشاء . ومضت أم ابراهيم تغذى هذا السيد الجديد ، وتصور لها أحمد سلطان وتعيد تصويره بطريقة بدأت تبلبل لنده وتلهب خيالها فى ساعات وحدتها . ولكنها أحيانا كانت تشك فى الأمر كله ، وتستبعد أن يكون أحمد سلطان قد غرق فى حبها كما تدعى أم ابراهيم ، وفى نوبة من نوبات ذلك الشك واجهت أم ابراهيم بهذا الرأى . ووجدت أم ابراهيم فى تلك المواجهـــة أن الموضوع قد نضج ، وأن لنده قد أصبحت الآن فى حالة تسمح لها أن تقول :

— ان ماكنتيش مصدقانى اتأكدى بنفسك .

— ازاى ؟

— قابليه .

— يانهار اسود !!

كان هذا هو جواب لنده فى ذلك اليوم . ولم تشأ أم ابراهيم أن تحرضها أو تثنيها ، بل وقفت على الحياد ، كل ما فى الأمر أنها ظلت تؤكد لها أنها اذا أرادت هذا اللقاء فسوف يتم فى السر تماما ودون أن يتسرب الى أى مخلوق ، وما عليها الا أن تحضر الى بيتها بأية حجة وتترك الباقى عليها هى . ومنذ تلك اللحظة لم تعد

أم ابراهيم الى الحديث فى ذلك الموضوع بالمرة ، بل حتى حديثها المعتاد للنده أصبح قليلا نادرا لا تكاد تبدؤه حتى تنهيه . ترى آلاف الأسئلة فى عيون لنده ، أسئلة أرقتها بالتفكير فيما تعرضه أم ابراهيم ، أسئلة تكاد تبرق بها ملامحها ، فلا تجيبها أم ابراهيم الا بتجاهل مدرب خبيث . بل انقطعت عن الذهاب الى بيت مسيحة أفندى ، ومضى يوم ، واليوم التالى بلا خبر عنها ، وبلغ القلق بلنده أشده وأرسلت دميان يستفسر فجاءها دميـــان يقول ان أم ابراهيم مريضة جدا تكاد تموت . وعلى الغداء طلبت من أبيها الاذن وأذن لها وهو فرحان فأرسلت دميان يقول انها قادمة لزيارتها بعد المغرب .

وهاهى ذى لنده جالسة الى جوارها ، فى فستانها (الجاپونيز) المفتوح ، يظهر جيدها وكتفيها ولا يفلح حتى فى اخفاء ما تحت ابطيها من شعر كان يبدو رغما عنها أصفر كثيفا . كلما تطلعت الى الحجرة ورأتها مرتبة منظمة وكأنها ليست مجهزة لزيارة ولكن مجهزة لاستقبال عروس أحست لنده بقشعريرة ما ، قشعريرة خوف ، وكأنها خائفة أن يحدث ما تتوقع حدوثه فعلا ، وكلما نظرت اليها أم ابراهيم ورأتها معتنية بزينتها اعتناء زائدا وكأنها ليست ذاهبة فى زيارة مريضة ولكنها استعدت لما هو أكثر من ذلك اقشعر جسد أم ابراهيم هو الآخر ودق قلبها بالفرحـــة ، وكأن ما دأبت على السعى اليه طوال تلك الأيام ، يخيفها أن يتحقق وأن ينجح مسعاها فى النهاية .

وكان لابد لحديث ما أن يدور .

ودار الحديث حـول اكتشاف أم اللقيط ، واكتشاف أنها متزوجة ، وأنهـا حملت من وراء زوجهـا دون علمه . وتناست أم ابراهيم انها مريضة واعتدلت تقص على لنده حكايات عن الترحيلة وبشاعة أخلاقهم ، وكيف أنهم لا يتورعون عن ارتكاب أى جريمة أو خطيئة بلا خجل أو حياء وكأنهم ليسوا بشرا وكأنهم قطيع من حيوانات أو أغنام . وكانت لنده توافقها موافقات قلقة مضطربة وتؤكد لها فى نهاية كل موافقة أن الله حتما سيغفر لهم اذ هم جهلة لا يدركون ماذا يفعلون . وتصر لنده على حكاية الغفران هذه بطريقة تبعث الريبة فى صدر أم ابراهيم فتجعلها تكف عن الحديث وتغير الموضوع .

وسألت لنده عن الشيخ أبو ابراهيم مشيرة الى قفطانه المعلق على شماعة عند رأس السرير ، فقالت أم ابراهيم انه ذهب الى العزبة نمرة ستة ليحيى مولدا هناك ، وفعلا ، ولو كانت لنده قد صعدت الى السطح وأصاخت السمع لرأت (كلوبا) موقدا بعيدا فى الناحية القبلية ولجاءها صوت الشيخ أبو ابراهيم وهو ممسك حلقة الذكر على الواحدة منسـجما مع الامام البرعى فى بردته المشهورة .

وعاد الحديث الى سكوت كاد يطول ، وكاد يؤدى الى جو الترقب والانفعال الذى سيطر على الحجرة منذ دخلت لنده . غير أنه لم يطل . سمعنا دقة على الباب الخارجى المفتوح .. دقة من يعلم من فى الداخل بقدومه .

وقالت أم ابراهيم بصوت متمارض ممدود وهى متأكدة تماما من شخصية القادم :

— مين ؟

وشحب وجه لنده وبدأت مسامها تتحبب وشعرها يكاد يقف .

ودخل أحمد سلطان ، طربوشه الغامق مائل على جبهته يكاد يخفى شعيرات حاجبه الأيمن ، وجلبابه الحرير البلدى مكوى ، والبالطو الأسود فوقه ، وذقنه حليقة والنور يطل من وجهه ، وشاربه مقصر ومزوق . وقال بابتسامة واسعة مدربة وكأنه لم يلحظ وجود لنده :

— مساء الخير يا أم ابراهيم . مالك ؟

فأجابت أم ابراهيم بنفس تصنعها :

— يسعد مساك ياأحمد أفندى . مافيش . الظاهر انى باسقط والا ايه ما أعرفش . مش تمسى ياأحمد أفندى .

وبلفتة تمثيلية مبالغ فيها انحرف أحمد قليلا ورفع حاجبيه الى أعلى وكأنه فوجىء وقال :

— الله ! الست لنده هنا . مش تقولى ياأم ابراهيم .

وهمّ أن يستدير على عقبيه ويغادر الحجرة تأدبا ولكن صوت أم ابراهيم ارتفع ومضى يصر على بقائه قائلة : هو انت غريب ياخويا . ما غريب الا الشيطان . كل هذا ولنده جالسة فى مكانها وكأنها فى دوامة ، لا تستطيع أن تنظر ناحية أحمد سلطان ، ولا ناحية أم ابراهيم ، ولا فى سقف الحجرة أو حتى فى أرضها .

وبدا أن أحمد سلطان وكأنما استجاب لالحاح أم ابراهيم فتنحنح وتقدم بضع خطوات وقال بتلعثم :

— اتبن بقول البيت منور ليه .. مساء الخير يالنده هانم .

وساد وجوم قليل ، وحركت لنده شفتيها بلا صوت مع أنها أرادت أن ترد ، وتداركت أم ابراهيم الموقف قائلة :

— يسعد مساك ياحبيبى. الهى يخليك لشبابك وينولك أمانيك.

ومد أحمد أفندى يده ليسلم على لنده . وارتبكت لنده برهة لا تدرى ماذا تفعل . ووجدت أن خير ما تفعله أن تمد يدها هى الأخرى وتسلم عليه . ولحظة واحدة هى التى استغرقها السلام ، ولكن أى لحظة ، يد أحمد سلطان بأصابعها الكبيرة الجامدة المجربة ذات الشعر ، يد تعرف كيف تطمئن البنت البنوت وتأخذها بأن تؤكد لها أن آخر ما تريده هو أن تأخذها ، يده هذه تمتد وتحتوى يد لنده ، اليد البضة الطرية المرتجفة ذات الأصابع الطويلة ، يد الثمرة التى نضجت على شجرتها وبقيت ناضجة حتى كاد يفوت أوانها ، ناضجة تكاد من نضجها أن تسقط من تلقاء نفسها ودون أن يمسها أحد ، يد ما ان التقت بها يد أحمد سلطان حتى أحست فيها أرض الواقع الصلبة ، الواقع الذى تمقته ولكنها تحيا فيه ، الخبز الذى فى حوزة اليد والذى هو بلا شك أجمل وأروع من لحم لا تراه الا فى الخيال ، وصفوت خيال ، وأحمد سلطان هذه يده ، غريبة عن نفسها وخيالها ولكن فيها ذكورة ، ذكورة تحرك فى كامنها أشياء لم تتحرك أبدا من قبل .

لحظة واحدة استغرقها السلام ، ولكنها جعلت راحة كف لنده

الصغيرة تنضح عرقا ، عرقا كثيرا الى درجة أنها حين سحبت يدها من يده تساقط من راحتها سيل من القطرات .

* * *

وغير بعيد ، عبر القنطرة الحجرية ، فى بيت فكرى أفندى المأمور كان صفوت ابنه يحاول النوم فلا يستطيع ، وحين فشل ادعى النوم ، فقد كان يعرف أن مصيبة كبرى ستحل به عما قليل ، فهمهمة الحديث تأتيه عبر الصالة المظلمة من حجـرة الجلوس ، الحجرة التى استقبل فيها أبوه مسيحة أفندى من وقت قريب وهو يعجب لتلك الزيارة المفاجئة فى ذلك الوقت من الليل .

ولكن عجبـه الآن لابد أنه يزول ، فها هى الهمهمة تصـله فلا يسمع فيها الا صوت مسيحة أفندى وهو يتحدث بلا انقطاع ، وسعال أبيه وهو يستمع دون أن ينطق حرفا . هاهى ذى فترة سكون تحل ، لابد أنه يريد فيها الخطاب . ألا سحقا له وللخطاب ولليوم الذى تحدث فيه عن لنده مع أحمد سلطان يوم عثروا على اللقيط .

فبعد الحديث هاجت فى قلبه الأحاسيس وتملكه خاطر عات يهيب به أن الأوان قد آن ليبوح للنده بكل ما يكنه لها قلبـه ويكشف عن أحاسيسه .

وفكر واستغرق يومين فى التفكير ، ثم كتب ذلك الخطاب الملعون ، كتبه بعد عشرات المسودات التى مزقها ولم تعجبـه صيغتها . وظل الخطاب فى جيبه يومين ، يتردد أحيانا فى ارساله ويحتار أحيانا أخرى فى كيفية ارساله .

ثم فكر فى محبوب ، هذا الذى أشاعوا أنه يرسل لها الخطابات

عن طريقه ، لماذا لا يستخدمه ؟ واستعبط محبوب أول الأمر ، ثم لما عرف تردد ، وخاف ، وقال انه حلف من يوم أن اكتشف خطاب امرأته معه ألا يحمل خطابات من هذا النوع ، ولكن صفوت ظل يهدده ويطمئنه ونفحه بالمرة ريالا . وبان على محبوب أنه قبل ولكنه عاد وقال انه يخاف أن يضبط معه الخطاب فيروح فى داهية، وأقسم له صفوت أنه سيكون مسئولا اذا حدث أى شيء . والى الآن لا يدرى صفوت هل كان رضاء محبوب بتوصيل الخطاب رضاء نابعا من قلبه أم كان رضاء يخفى وراءه أخبث قصد ، والى الآن لا يدرى هل هى فقط مجرد سذاجة من محبوب أن يذهب الى بيت مسيحة أفندى ويسأل على الست لنده من الباب للطاق فيستوقف سؤاله انتباه مسيحة أفندى فيجذبه الى الداخل ويضيق عليه الخناق ويفتشه فيعثر معه على الخطاب بكل بساطة ، هل هى سذاجة من محبوب حين فعل ذلك أم أنه الخبث ، خبث ذلك الرجل الأمرد القصير الذى أبى أن يمثل دور رسول الغرام لأمر فى نفسه فكشف عن قصده عن عمد لمسيحة أفندى ، وأصبح ليس عليه بعد أن وجدوا معه الخطاب الا أن يقول :

— وأنا مالى..سى صفوت بيه هو اللى أمرنى ، وأنا عبد المأمور.

وليت الموضوع اقتصر على هذا ، ليت المصيبة كانت فى الخطاب وحده ، المصيبة الكبرى أن صفوت لشدة ما كان يعتريه من قلق على خطته ظل يراقب بيت مسيحة أفندى من اللحظة التى سلم محبوب فيها الخطاب . ولم يتح له أن يرى محبوب وهو داخل الى البيت فقد فوجىء بعد المغرب بقليل بلنده نفسها خارجة من

البيت فى أبهى حلة وأتم زينة . وأول الأمر اعتقد أنها ذاهبة الى بيتهم هم فى أمر ما ، ولكنها لم تعبر القنطرة الحجرية ولم تأخذ الطريق الى بيتهم ولكنها انحرفت ناحية العزبة ، وظل هو يتتبعها من بعيد ويخمن قصدها ، ولم يتح له أن يخمن طويلا اذ ما لبث أن وجدها تطرق باب بيت الشيخ أبو ابراهيم الفقى وتدخل . ترى ماذا تراها ستفعل فى بيت الشيخ أبو ابراهيم . سؤال ظل يلح عليه طويلا دون أن يعثر له على اجابة ما . وأخيرا أقنع نفسه بأنها ذاهبة لابد لزيارة أم ابراهيم .

وهنا بدأت ملامحه تبرق وبدأ خاطر جنونى يستبد به . الشيخ أبو ابراهيم فى العزبة نمرة ستة يحيى المولد الذى هناك ، ولنده الآن جالسة وحدها مع أم ابراهيم ، أليست هذه فرصة جاءته من السماء على غفلة ؟ وما الذى يحدث لو دخل الآن بيت الشيخ أبو ابراهيم مدعيا أنه يسأل عنه مثلا أو أنه يريد مناقشته فى موضوع خاص والنقاش بينهما أمر معروف ، اذ كثيرا ما قضيا جزءا كبيرا ساهرين عند القنطرة أو أمام دكان جنيدى يناقشان المشكلة الأزلية : الله ووجوده والخيار والالزام ، والشيخ أبو ابراهيم يستمع لشكوكه وحيرته بصدر رحب سمح ، ويطول بينهما النقاش ولا يتفقان . لماذا لا يدعى السؤال عنه ويدخل ، واذا عزمت عليه أم ابراهيم يجلس ، ولابد أنه سيدور الحديث ، ولابد أنه سيجد فرصة ينفرد فيها بلنده ويخبرها بمكنون قلبه ، وقد يوصلها الى بيتها بعد انتهاء زيارتها . ورغم وجاهة السبب ووجاهة الفكرة فقد ظل صفوت مترددا ، أحيانا يتحرك خطوات فى اتجاه

البيت فتخونه شجاعته ويتوقف ، وهو محرج أيما احراج اذ المكان الواقف فيه مكان مكشوف تمر عليه الناس فيه وتحييه وتعجب ، والمسألة يلزمها بعض التروى والتفكير فقدرته على مواجهة لنده قد انتابها ضعف كبير من اللحظة التى قرر فيها أن يصارحها بحبه . وهكذا انتحى صفوت ركنا من الشارع اختاره بجوار صومعة غلال قائمة تكاد تحجبه بحجمها الضخم عن الأنظار ، ومضى يقضم أظافره ويعمل فكره واضطراب عظيم قد تملكه . وبينما هو كذلك رأى أحمد أفندى سلطان قادما من أول الشارع بطربوشه ومعطفه اللذين لا تخطئهما العين . وازداد التصاقا بالحائط واختفاء وراء الصومعة حتى لا يراه أحمد سلطان فيعيره بموقفه ذاك عدة ليال وسهرات . ولكن أغرب شيء أن أحمد سلطان لم يمر عليه ، اذ قبل أن يصل الى منتصف الشارع انحرف ، ودق باب الشيخ أبو ابراهيم المفتوح ودخل . قلب صفوت هو الآخر دق فى عنف وتولته حيرة عظمى كادت تحجب الرؤيا عن عينيه . ولكن عينيه ما لبثتا أن رأتا الباب ، باب الشيخ تحركه يد نسائية من الداخل ، ثم مالبث أن انصفق وانغلق . وتصاعدت الدماء فى نافورة حارة الى رأسه . وخرج من مخبئه وأسرع يلهث حائرا فى اتجاه الترعة كمن لدغته لتوه حية رقطاء .

وألف شيء فكر فيه فى تلك اللحظة .

فكر أن يذهب ويحضر البندقية ويقتحم البيت ويطلق عليهما ظرفين دفعة واحدة . فكر فى أن يسكت وينتظر اذ ربما يكون الأمر قد حدث صدفة . فكر فى أن يذهب ويطرق الباب بحجة أنه

يسأل عن الشيخ أبو ابراهيم ويفاجئهما بظهوره ، فكر فى كل شىء ولكنه كان دائما يجد نفسه عاجزا عن أن يفعل شيئا وكأن ارادته قد أصيب بشلل مفاجىء ، ولم تعد تستطيع الا البكاء . ولكنه رفض أن يخضع لارادته ويبكى ، وفجأة وجد أن همه كله أصبح فى أن يعثر على محبوب قبل أن يذهب بالخطاب فيأخذه منه ، اذ لم تعد له حاجة به ، ولم تعد تنفع الـ .. خطابات .

ولكنه لم يجد محبوب ، وعبثا حاول العثور عليه وكأن أهدافه من الحياة قد تبلورت كلها فى العثور على محبوب . وحين فشل فى هذا أيضا أحس أنه قد أصبح يريد البكاء . وهكذا عاد الى البيت، وانهار فوق سريره يريد أن يبكى . ولكن البكاء استعصى عليه هذه المرة ، وبقى راقدا مفتح العينين كالمجـانين . الى أن أحس ببابهم يدق ، وبمسيحة أفندى يطلب مقابلة أبيه لأمر عاجل ، ويقوم أبوه من النوم ، ويفتح حجرة الجلوس ويجلس هو ومسيحة أفندى، ويسمع بأذنه مسيحة وهو يروى لأبيه تفاصيل ما حدث حـين جاءهم محبوب يسأل عن الست لنده . وعما قليـل سيأتى أبوه ويحاسبه الحساب العسير .

ظل صفوت راقدا مفتح العينين ينتظر اقتراب الخطوات التى يعرفها جيدا ، خطوات أبيه ، وهو مستعد لمواجهته كل الاستعداد وكأن لم يعد مهما لديه بعد ما حدث أن يحاسب على أى شىء وأن يتهم بأية تهمة . ولكن خطوات أبيه حين اقتربت حقيقة وجـد صفوت نفسه يغلق عينيه ويدعى النوم . ووقف أبوه بباب الحجرة

والمصباح فى يده طويلا ، وكأنما هو متردد بين أن يوقظه وبين أن يترك أمر محاسبته وعقابه للصباح .

ويبدو أنه آثر فى النهاية أن يترك كل شىء للصباح فالصباح رباح .

* * *

ولكن فكرى أفندى لم يستطع محاسبة صفوت فى الصباح ، اذ استيقظوا فلم يجدوه ، ولكنهم وجدوا خطابا منه يقول فيه انه ذهب ليبحث عن عمل فى الاجازة فى مصر بعيدا عنهم وعن التفتيش وأنه لم يجد فائدة فى مجادلتهم فهم حتما سيعترضون . ويقول فى الخطاب أيضا انه آسف لأنه اضطر (لاقتراض) كل ما فى كيس أمه من نقود ويعد بردها جميعا حين يقبض أول ماهية . والمضحك أن الورقة التى كتب عليها الخطاب يبدو أنها كانت احدى مسوداته لخطاب لنده ، اذ كان فى ظهرها كلمة حبيبتى مشطوبة ومعاداً شطبها. ولم يفعل فكرى أفندى شيئا أكثر من أن قرأ الخطاب مرة أخرى ثم مزقه وهو يحاول اخفاء رضائه عن هروب صفوت ، فالواقع أن صفوت أسدى اليه معروفا ، وأراحه من مهمة محاسبته ومواجهته وتلك — بالنسبة الى فكرى أفندى — كانت دائما مهمة عسيرة على نفسه وشاقة يتألم لها أضعاف ألم صفوت منها .

١٧

أقيمت (ظليلة) أخرى لعزيزة بجوار أم الترحيلة تماما ، اذ لم تعد ثمة حاجة لذهابها كل يوم مع الأنفار ما دام المأمور قد عرف ووافق على أن تحتسب يوميتها وهى راقدة .

وتكفلت الظليلة والمرأة المريضة الراقدة تحتها بلفت نظر الناس وتعريف من كان لا يزال لم يعرف بعد بحكاية عزيزة . والحقيقة أن سلوك أهل التفتيش تجاه حكاية عزيزة كان سلوكا غريبا . فأول الأمر كان همهم أن يثبت أن الفاعلة واحدة من الترحيلة . وحين ثبت هذا واطمأنوا ، دفعهم حب الاستطلاع لمعرفة قصة هذه الفاعلة . وحين عرفوا القصـــة وأشيع أن صاحبتها قد بلغت من المرض حداً أن رقدت فى مكان الترحيلة أصبح كل همهم أن يروا تلك المرأة ويتأملوا كيف تكون وماذا تشبه . ومن أجل هذا كانوا يقبلون جماعات وأفرادا ، نساء ورجالا وحتى صبية وأطفالا . كان القادم ليتفرج على عزيزة منهم يدعى أنه فى طريقه الى الجرن أو ماكينة الرى أو سارح الى الغيط ، وحين يرى الظليلة يتلكأ وكأنما قد استوقفه منظرها ، ويروح يسأل وكأنما هو لا يعرف ، ويحدق فى المرأة الراقدة ويطيل التحديق .

كان هذا يحدث أول الأمر ، ولكن بمضى الوقت لم تعد هناك حاجة للادعاء ، فقد كان من يريد التفرج على عزيزة يقف صراحة غير بعيد عن مكانها ويظل منتظرا أن تستدير أو يخرج منها صوت

أو تبدو لها ملامح . وبعد أن كان الناس يعملون حسابا لوجود بلدياتها الغرابوة اذا وجدوا ، أصبحوا يقفون للتفرج على عزيزة حتى فى وجود الغرابوة . وكانوا يفعلون هذا دون أن يتبادلوا كلمة واحدة مع الغرابوة وكأنهم ليس لهم بهم دعوة أو صلة ، وكأن عزيزة لم تعد منهم وانما أصبحت ظاهرة عامة من حق الجميع أن يروها ويتفرجوا عليها . وكان الغرابوه يتقبلون هذا الوضع بكثير من الاحتمال وضبط النفس .

غير أن عزيزة حين بدأت تخرف وتصرخ صرخاتها المحمومة ويخف اليها بلدياتها يحادثونها ويصبرونها ويهدهدون عليها وكأنها واعية عاقلة مدركة لما تقول ، حين بدأت تفعل هذا ، بدأ الجمود يذوب ، وبدأت ألسنة المتفرجين من أهل العزبة تنطلق وتتحدث مع الغرابوة ، وتشارك بكلمة عطف أو بمصمصة شفة . ثم تجر الكلمة كلمات ، ويبدأ حديث بين الرجال والرجال وبين النساء والنســاء .

ولكن عزيزة بعد ثلاثة أيام من رقادها بدأت تتشنج . يتخشب جسدها حتى يصبح جامدا ناشفا كالعصا وتعض لسانها حتى تدميه . وكان أهل العزبة حينئذ لا يستطيعون أن يتمالكوا أنفسهم أمام منظرها فيسرعون ، مثلهم فى هذا مثل بلدياتها الترحيلة ويتعاونون فى فتح فمها وتدليك جسدها وتنشيقها ماء البصل .

وأسلم التشنج عزيزة الى نوبات هلع مفاجىء ، اذ بدأت تقوم بغتة من نومتها صارخة صاخبة وتنطلق جارية الى الخليج القريب وتقذف بنفسها فيه بملابسها وكأنها تريد اطفاء نار مشتعلة فيها .

حينئذ كان يتعاون أهل العزبة مع الترحيلة فى اخراجها من الماء وحملها وارقادها فى مكانها تحت الظليلة . وفى تلك المرات كانوا يجلسون الى جوارها فى جماعات مختلطة من الغرابوة وأهل العزبة ، جماعات حين تهدأ عزيزة ويطمئنون عليها تمضى تتحدث ، ويبدأ الحديث عن عزيزة وحالتها ، وينتهى الى الحديث كل عن نفسه وأحواله .

وما أسرع ما انتقل التغير الى لهجة الحديث عن عزيزة ، فبعد أن كان الواحد من أهل العزبة يروى حكايتها للآخر وهو يكاد يتقزز منها ومن حكايتها ومن الغرابوة بشكل عام ، أصبحت الحكاية تحكى باختصار ، وكأنها أصبحت عيبا ، وكأن فى الافاضة فيها خدش لحرمة حرمة وشرف ناس . حتى أولئك الذين كانوا يذهبون بغية التفرج على عزيزة قل عددهم وكادوا ينعدموا .

وحين ازدادت شدة المرض تكاتفت الجهود تبحث لها عن البرشام الأصفر فى كل بيت وعزبة ، وأعطاها جنيدى قنينة خل بنصف الثمن ، وذبحت لها نبوية ، عن نفسها وعيالها كما قالت ، أرنبة صغيرة وطبختها وحملتها فى حلتها الى أم الترحيلة كى تطعمها اياها ، وفعلت هذا بين دهشة أهل العزبة واستكثارهم أن تفعل نبوية الفقيرة المعدمة هذا . ولكنها فعلته بكل شهامة . ولم يقلل من شهامتها أنها حين استعادت الحلة غسلتها بالتراب والطين وشاهدتها سبع مرات قبل أن تعود وتستعملها .

وهكذا ، وحول مرقد عزيزة وظليلتها بدأ اختلاط ما يحدث بين أهل العزبة والترحيلة . اختلاطا متحفظا أول الأمر وفى حدود ،

ولكن أهل العزبة اكتشفوا من خلاله أن الترحيلة لهم بلاد هم الآخرون ، ويعرفون مثلهم فى الفلاحة ويفلحون ، ولهم أيضا بيوت وقرايب وعمات وخالات ، وبينهم مشاحنات وخلافات ، ولهم من الريس شكاوى ومن المأمور والادارة والتفتيش شكاوات .

وهكذا أيضا راح أولاد العزبة يلعبون مع أولاد الترحيلة عينى عينك أمام الآباء الذين كانوا لا يمنعونهم من اللعب معهم ولكنهم فقط يوصونهم ألا يدعوا أولاد الترحيلة يتنفسون فى وجوههم ، اذ من الجائز أن يكون فى أنفاسهم (مكروب) .

ورغم أن فكرى أفندى فى تلك الأثناء كان مشغولا مشغولية كبرى على ابنه مع أنه لم تكن تلك أول مرة يتركهم فيها صفوت ويذهب الى مصر مدعيا البحث عن عمل فى الأجازة الا أنه كان فقط يريد أن يطمئن على مكانه ، اذ أن النقود التى أخذها كان لا يمكن أن تكفيه وكان لابد أن يرسل له نقودا أخرى تكفيه .

ولكن على الرغم من مشغوليته الكبرى هذه فقد كان مشغولا أيضا بعزيزة ، وهو نفسه لا يدرى لماذا منذ أن عثر عليها أصبح يحس وكأنه مسئول عنها ، وكأنما كان يبحث ليعثر عليها ويصبح مسئولا عنها . كان فى ذهابه الى الغيط يمر على مكانها ، ولا يفعل شيئا أكثر من أن يقف على رأسها ويراها وهى تتمرغ فى فراش القش وتغمغم بكلامها غير المفهوم . كان يقف قليلا هكذا ثم يمضى عنها وهو يتصعب ، فلم يكن يستطيع أكثر من هذا ، اذ أن عرضها على طبيب المركز أو ارسالها لمستشفى الحميات مسألة محفوفة بالمخاطر قد يكتشف أثناءها أنها الوالدة ، وبالتالى القاتلة وتكون

الكارثة ، كارثة لن تصيبها فقط ولكنها ستصيبه هو الآخر باعتباره علم بالأمر وتستر عليه ولم يبلغ السلطات . كل ما استطاعه هو أن يأمر الأسطى زكى حلاق التفتيش الذى كان يشغل مركز حلاق الصحة ويزاول الحلاقة وطهور الأطفال ووصف الأدوية لتقوية الباه واعادة الشباب وعلاج الحمى ، يأمره فى السر وكأنما يخاف أن يضبطه الناس فى لحظة ضعف وعطف أن يتولى علاج عزيزة ويحاسبه . ورغم أنه تولى علاجها فعلا ، بعمامته البيضاء التى يرتديها فوق طاقيته البيضاء أيضا وذقنه الحليقة وشاربه الحليق والناب الذهبى الذى يتلألأ فى فمه ، رغم أنه تولى علاجها الا أن حالتها لم تزد الا سوءا ، حتى بدأت تتكرر نوبات القائها لنفسها فى الخليج ، وحينئذ أمر فكرى أفندى الريس عرفه بأن تبقى أم الحسن جارتها معها لحراستها ولا تسرح الغيط وتحتسب يوميتها .

ومسألة أخرى ظلت سرا لم يعلم بأمره مخلوق . فالمودة بين مسيحة أفندى الباشكاتب وفكرى أفندى المأمور كانت مفقودة بالمرة ، ولم يفعل الخطاب الذى ضبطه مسيحة الا أن أزاد الطين بله . ومن تلقاء نفسه كان مسيحة أفندى يتحين الفرصة ليمسك على المأمور خطأما . ويدبه عريضة ينسخها الشيخ أبو ابراهيم بخط يده ويرسلها باسم مستعار الى الدائرة فى مصر . وقد وجد مسيحة أفندى فى احتساب يومية عزيزة وجارتها فرصة مواتية هبطت عليه من أبواب السماء الواسعة . وبعد أن تأكد من أحمد سلطان أنهما مقيدتان فعلا فى دفتر اليومية ، سهر ليلة بأكملها يدبج عريضة طويلة بهذا المعنى متهما المأمور بأنه يزود فى عدد الأنفار ويقتسم

الفرق مع المقاول ، ويزور فى (شاليش) اليومية وأن الشاهد على ذلك حى وموجود وما على جناب الخواجة الا أن يرسل المفتش ليتحقق بنفسه مما ذكر .

وبعد أن اطمأن مسيحة أفندى الى لهجة العريضة ، وضعها فى كيس المخدة تمهيدا لاعطائها فى الصباح للشيخ أبو ابراهيم لينسخها ويرسلها .

وحين رقد مسيحة أفندى أخيرا والعريضة قد أصبحت فى كيس المخدة تحت رأسه ، بدأ بعض التردد ينتابه ، لماذا ؟ لم يكن يدرى . انه لم يتردد أبدا فى ارسال أية عريضة من قبل ، فلماذا يتردد الآن ؟ ولماذا يحس ببعض الخجل وصورة الظليلة الراقدة تحتها عزيزة تراود خياله وصراخها وتخريفاتها تطن فى رأسه وتشير اليه وتحاصره .

وحين استيقظ فى الصباح تردد بين أن يأخذ العريضة وبين أن يتركها ، وأسلمه التردد الى أن يسأل دميان قائلا دون أن يعرفه بشىء عن موضوع سؤاله : آخدها والا أسيبها يادميان ؟

وبلل دميان أصبعيه وفرد كمه ورفع رأسه الى السقف وقال :

— سيبها ياخويا ربنا يسهل لك .

وبقيت العريضة مطوية فى كيس المخدة .

* * *

ظلت عزيزة راقدة فى تلك البقعة المكشوفة التى تصليها الشمس بنارها صباح مساء ، لا يفلح سقف الظليلة الرقيق المملوء بالثقوب فى دفع وهج الشمس عنها ، ولا ينفع فيها صب الخل

أو تدليك الجسد أو علاج الأسطى زكى الحلاق . ظلت عزيزة وأزيز الحمى فى جسدها تكاد تسمعه جارتها أم الحسن وتحس به كلما أمسكت يدها . الذباب يعف عليها والعرق يكسوها وفترات غيبوبتها تطول وتعمق . بل انقلب تخريفها آخر الأمر الى صراخ ، اذا أفاقت من غيبوبتها لا تكاد تفتح عينيها وتقول لها أم الحسن : ازيك ياختى دلوقتى ، حتى تدب على صدرها بكلتا يديها وتقول : ياهوى . ثم تأخذ فى لطم خدودها وتمزيق ثيابها ولحمها بأظافرها رغم كل مجهودات جارتها ومن يتصادف مروره أو وجوده فى محاولة شل حركتها وتكتيف يديها ، فلا تزيدها محاولات ايقافها الا ثورة وهياجا ، ولا تكف عن تمزيق نفسها الا حين تهوى مرة أخرى فى سراديب الغيبوبة .

ولم تعد الظليلة تلك السبة فى جبين الغرابوة يحاولون اخفاءها وصرف الأنظار عنها . فحين عرفت الحكاية على أوسع نطاق وتمت اشاعتها بكل دقائقها وتفاصيلها لم يعد هناك ما يخجل له الغرابوة، أصبحت شيئا مثل لغتهم وفقرهم واحتياجهم لا يحاولون اخفاءه أو التستر عليه . وأهل التفتيش أيضا ، أولئك الذين كانوا يتداولون حكايتها فى السر وباحساس من يتداول حراما أو أمرا مخجلا ، أصبحوا يتحدثون عن الموضوع وكأن لم يعد فيه ما يدعو للخجل . تحول اهتمام الكل من حكاية عزيزة الى عزيزة نفسها ، عزيزة المريضة المسعورة التى تتعذب ، حتى أصبحت الظليلة التى ترقد تحتها وكأنها قبة شيخة ، الفائت لا يمكن أن يمر دون أن يلقى نظرة ، ليست نظرة حب استطلاع أو تشف ولكن نظرة عطفه

ومشاركة ، نظرة من يود لو كان باستطاعته أن يفعل شيئا ليخفف عن تلك المسكينة المحمومة المعذبة .

تحول اهتمام الكل الى عزيزة . وتحولت عزيزة الى ذئبة ضارية فاقدة العقل اذا أفاقت ، جثة هامدة لا يربطها بالحياة الا تلك الحرارة المريضة التى تتصاعد منها اذا غابت عن الوعى .

الى أن جاء اليوم العاشر .

ومن أوله استيقظت أم الحسن فوجدت بوادر التحسن بادية على عزيزة . حرارتها قد انخفضت كثيرا عن ذى قبل ، وعيناها مفتوحتان بلا غيبوبة ولا هذيان ، وأنفاسها تتردد بطيئة فى صدرها ولكنها منتظمة وممتلئة . وفى الضحا انفرجت شفتا عزيزة ، وأصاخت أم الحسن أسماعها ولكنها لم تستطع أن تلتقط شيئا من بين الشفتين المنفرجتين . وأخيرا وبعد بذل الجهود استطاعت أن تتبين أن عزيزة تقول : اشرب . وقامت أم الحسن من فورها هالعة، وأحضرت لها كوز ماء من زلعتها ، وقربته من فمها ، وشربته عزيزة على دفعات ، ولكنها أتت عليه كله . وسألتها ان كانت تريد ماء آخر ، وانفرجت شفتا عزيزة وقالت بكلمات واضحة هذه المرة : أشرب . وجرت أم الحسن وأحضرت كوزا آخر شربته عزيزة ، وما لبثت أن أغلقت عينيها وبدا أنها ستنام ذلك النوم الذى حرمت منه طويلا .

وانبثقت فرحة غامرة فى صدر أم الحسن وهى تتحسس جبهة عزيزة فتجدها وكأن حرارتها قد أصبحت طبيعية ، وتجدها نائمة

لا يكاد يفرقها عن الأصحاء الا ذلك الشحوب الشـــديد الذى يصبغ وجهها .

وفى الظهر ، فى عز الظهر ، تلك الفترة التى تقف فيها الحياة تماما ويؤوب الناس الى غداء يسلمهم الى غفوة لا يفيقون منها الا فى طراوة العصر ، فى الظهر فتحت عزيزة عينيها فجأة وكأنها لم تكن نائمة ، وانفرجت شفتاها وقالت شيئا . وأدركت أم الحسن أنها تريد أن تشرب ، وطلبت من ابن الريس عرفه الصغير أن يذهب ويملأ لها الكوز من زلعتهم فقـــد فرغت زلعتها ، وذهب الولد بالكوز الفارغ . فى تلك اللحظة فوجئت أم الحسن بعزيزة تعتدل وتقفز جالسة ثم تطلق صرخـــة عالية مدوية ما لبثت أن أعقبتها بصرخات هائلات مدويات . وقبل أن تستطيع أم الحسن أن تدرك أو تعى ما يحدث ، وقفت عزيزة وهدمت الظليـــلة وما لبثت أن انطلقت تجرى ناحية الخليج وتصرخ . وبلا وعى تبعتها أم الحسن وهى تجرى هى الأخرى وتصرخ وتستغيث بالناس مخافة أن تكون عزيزة قد انتوت أن تلقى بنفسها فى الخليج كما كانت تفعل . وعلى صرخاتها جاء النـــاس من كل مكان ، من العـــزبة ومن الجرن ومن فوق ماكينة الدراس ، جاءوا هالعين يرون ما هنـــالك . وقالت لهم أم الحسن : الحقوها ح ترمى روحهـــا فى الخليج . وجرى الناس يحاولون منعها ولكنها انهالت عليهم عضـــا ورفسا ونشب أظافر بطريقة مجنونة متوحشة لم يملكوا معها الا التراجع. ولكنها لم تلق نفسها فى الخليج . انطلقت تجرى حتى وصلت الى

نفس المكان الذى وجدوا فيه اللقيط ، والذى كانت لا تزال فيه آثار الدماء سوداء جافة .

وبين دهشة الملتفين حولها وذهولهم جلست عزيزة القرفصاء على حافة الخليج وكأنها تتهيأ للولادة ، وانطلقت من فمها صرخات متواليات وكأن الطلق اشتد عليها ، ثم عسعست بيدها حتى عثرت على عود الصفصاف الذى احترق نصفه والذى كان لا يزال فى مكانه من الحافة ، وأطبقت عليه بأسنانها واتخذت هيأتها طابعا جنونيا مذعورا وهى تضغط على العود وتنشب أسنانها فيه ، وظلت تضغط بتوحش وتضغط وهى تدمدم بأنين محتبس كاسر والدم يسيل من فمها وأسنانها فيلوث العود ، وعيناها جمرتان متوهجتان وشعرها منكوش كشعر الجـان ، ويداها تعتصران طين الخليج فتحيلانه الى تراب جاف . وفجأة ، وكأن شيئا طق داخلها ، تهاوت ممددة على حافة الخليج لا حراك بها .

حدث هذا كله فى دقائق قليلة ، والناس مشدوهون مذهولون قد جمدهم ما يحدث فى أماكنهم ، ولم يبدأوا يتحركون الا حينما انهارت عزيزة . وحين أسرعوا اليها يتحسسونها وجدوها قد ماتت .

وتصاعد من الرجال جئير عريض يقول لا حول ولا قوة الا بالله لا حول ولا قوة الا بالله ، ونهنهت النساء القليلات الحاضرات ، وبكت أم الحسن بحرقة وهى تحاول مستعينة بالرجال أن تخلص عود الصفصاف من بين الفكين الميتين عليه .

أما ابن الريس الصغير الذى كان قد جاء بالكوز ممتلئا لتشرب

منه عزيزة فقد عاد به الى عشهم ، ولكنه توقف بعد قليل واستدار ناحية الخليج وألقى فيه بالكوز ولم يلبث أن تصاعد بكاؤه .

* * *

ولم يصل الخبر للترحيلة فى الغيط الا بعد الغداء ، ولم تستطع جهود الريس أو خولة التفتيش أن توقف ما حدث لهم حين سمعوا الخبر . فقد دب الاضطراب فى صفهم الطويل ، وحين انهالت العصى الخيزران فوق ظهورهم تأمرهم بمواصلة العمل اعتدلت الظهور لأول مرة واستدار أصحابها يواجهون الخولة والسواقين بعيون مفتوحة لا تطرف ونظرات تنذر بثورة لا يعلم سوى الله مداها ، ثورة الصامتين الذين طال بهم الصمت والصبر . والغريب أن الخولة والسائقين حين رأوا تلك النظرات بدأوا يغيرون طريقتهم فى الحال ، فكفوا عن الاهانات والخيزرانات وبدأوا يتحايلون ويسوقون الرجاوات قائلين ان عيشهم معلق بما سوف يحدث وأنهم غلابة وأصحاب عيال .

واتتهى العمل قبل موعد انتهائه المعتاد بأكثر من ساعة وعاد أنفار الترحيلة يتسابقون على المشايات ويستعجلون انهاء الطريق .

وفى المساء حفل مكان الترحيلة الكائن خلف الاصطبل بعدد كبير من الناس لم يشهد له مثيلا . فقد جاء الفلاحون من العزبة الكبيرة والعزب الأخرى ، وجاءت معهم بعض نسائهم ، جاءوا يعزون الترحيلة تعزية الرجل للرجل والند للند ، وكانت عزيزة قد وضعت فى المكان الذى رقدت فيه أثناء مرضها وغطيت بكيس من أكياس القطن التى كانت تستعمل لهز الدودة ، والتفت حولها نساء

الترحيلة ومن جاء ليعزيهن من نساء العزبة ، بعضهن يبكى فى صمت ، وبعضهن يعدد على عزيزة وميتتها فى بلاد الغربة بعيدة عن دارها وزوجها وأولادها ، وبعضهن يتحدث ذلك الحديث الذى لا يحلو للنساء الا فى المآتم والجنازات ، حديث تحكى فيه المرأة من العزبة للمرأة من الترحيلة أو المرأة من الترحيلة للمرأة من العزبة عن وكستها وميلة بختها مع زوجها المقصر ، وثوبها الذى لا يصر حفان ملح من كثرة ما به من خروق وثقوب ، وأولادها الأشقياء وبنتها التى يجرى عليها عريس عنده فدانان .

أما رجال الترحيلة فقد جلسوا غير بعيد فى مقدمة الجرن يتقبلون عزاء رجال التفتيش وقد اختلطت العمم بالعمم والجلاليب بالجلاليب فلم تعد تستطيع أن تميز الفلاح من الترحيلة ولا صاحب المأتم من المعزى . بينما الشيخ أبو ابراهيم الفقى قد احتل دكة أحد النوارج الواقفة على (رمية) قمح نصف مدروس ومضى يتلو بصوته الأجش المبحوح بعض ما تيسر من سورة النساء ، والشمس قرصها يحمر ويغيب خلف كومة التبن الهائلة المتخلفة عن دراس المكنة .

ودونا عن الجميع كان دميان فى ذلك الوقت يحوم حول بيت المأمور بلا سبب معلق فى ذراعه منتظرا ربما تطل الست أم صفوت من البلكونة ليحادثها ، ولكنها لم تطل ، اذ كانت فى ذلك الوقت جالسة على كنبة الصـالة وأمامها جلست على الأرض بنت من الترحيلة تدلك لها قدميها وتحكى لها عن عزيزة وزوجها وكيف يعيشون فى البلدة .

ظل دميان يحوم حول البيت ويتردد الى أن واتته الجرأة

فدخل من الباب الخلفى الذى يؤدى الى الحوش والمطبخ ، دخل وهو يزعق : ياست أم صفوت .. ياست أم صفوت .. مش عايزه أقرى لك الفنجال .

يزعق بنفس طريقته ونفس صوته الرفيع الذى يشبه صوت الأطفال ولكنه كان يشعر لحظتها برجفة غريبة عليه وعلى دميان .

وبعد دقائق كان دميان يغادر بيت المأمور من بابه الأمامى ، مطرودا هذه المرة ملعونا أبوه ، وظل يمشى على غير هدى الى أن وصل الى الجرن حيث الجمع الكبير المحتشد ، وتردد برهة بين أن يذهب الى حيث الرجال فى الجرن أو الى حيث النساء حول عزيزة فى مكان الترحيلة ، ويبدو أنه خاف من جمع الرجال اذ ما لبث أن توجه الى حيث النساء مجتمعات حول عزيزة . وبكى دميان فى ذلك اليوم بحرقة حتى كاد يضحك بحرقته النساء .

وأمام مبانى الادارة ، وعلى بضع كراسى قديمة متناثرة معظمها قد سقط خوص قاعدته كان فكرى أفندى المأمور جالسا وحوله مسيحة أفندى وأحمد سلطان والأسطى محمد والشيخ عبد الوارث الكبير والمخزنجى ورئيس الخولة ومن بعيد كان يرقب جلستهم بعض الفلاحين الذين يؤثرون التطفل وتسقط الأخبار والعلم بكل ما يدور فى التفتيش من أمور . وكان المأمور يتدارس مع الرجال المجتمعين حوله الحل الذى انتهى اليه فى أمر عزيزة . فقد خلقت له عزيزة بوفاتها مشكلة لم تكن تخطر له على بال . اذ هو لا يستطيع الابلاغ عن وفاتها أو دفنها فى التفتيش ، فسوف يتطلب الابلاغ كشفا يوقع على المتوفاة ومن يدرى ما يمكن أن يؤدى اليه الكشف

من تستر على جانية وتحقيق وسين وجيم . ولم يكن هناك من حل الا أن ترسل ميتة الى بلدها ، وهنــاك يتكفل الحج عبد الرحيم مقاول الترحيلة بأمرها فهو المسئول الأول والأخير عن أنفــاره وحياتهم ولابد أن يكون أيضا مسئولا عن موتهم ممكنه أن يتفق مع عمدة بلده ، وهو صاحبه وقريبه على الابلاغ عن وفاتها باعتبار أنها لم تكن فى الترحيلة أو كانت هناك ثم عادت لما مرضت وماتت فى بيتها . أو ممكنه أن يصنع أى شىء آخر يخلى التفتيش والمأمور من المسئولية . ممكن أى شىء ولكن الشىء المحتم الذى لابد منه هو أن تنقل جثة عزيزة الى بلدها .

ونقلها هو المشكلة التى ظلت تحير فكرى أفندى طويلا حتى عثر لها على حل . وكان الحل فى عربة التفتيش اللورى التى تذهب كل خمسة عشر يوما الى بلد الترحيلة لتحضر لهم زوادتهم من عيش غرباوى وجبنة وبصل وعدس ومش . ولم يكن ميعاد ذهاب العربة قد حل ، ولكن تقديم هذا الموعد ليس بالأمر الخطير غير المستطاع .

وكان المأمور قد أرسل فى طلب الأسطى عبده سائق اللورى وأخذ يفهمه بلهجة جادة تعمد أن تكون لهجة أمر لا تسمح للأسطى عبده بالتحجج أو التهرب ، يفهمه مهمته ، وما يجب عليه عمله . وأبدى الأسطى عبده بعض التردد وأثار بعض الاعتراضات تكفل الأسطى محمد العجوز بالرد عليها جميعا . ولم تبد على ملامح الأسطى عبده الموافقة النهائية الا بعد أن تعهــد له المأمور أنه

سيكون مسئولا مسئولية تامة لو حدث شيء لاقدر الله . وحينئذ فقط أرسل الأسطى عبده طاقيته الصوف الطويلة وجلبابه ، اللذين يرتديهما فى العادة ، أرسلهما الى بيته طالبا من امرأته أن تبعث له بالبدلة الكاكى التى يرتديها حين يسافر . ثم مضى الى الجاراج يعد اللورى للرحلة الطويلة التى عليه أن يقطعها على سكك متعبة غير ممهدة لكى يبعد قدر طاقته عن عساكر المرور وأكشاكهم .

وحين أعدت العربة وتم كل شيء كان الظلام قد خيم وكان ميعاد ذهاب أنفار الترحيلة الى الغيط قد حان ، اذ كانت اللطع قد فقست فى العزبة نمرة عشرة وكان الأنفار يعملون بالنهار فى التقاط اللطع ، ويسرحون بالليل — لقاء أجرة ثانية — لهز أشجار القطن وجمع الدودة من على أوراقها ، الدودة التى تختفى فى النهار فى شقوق الأرض ولا تبدأ زحفها الفاتك الا فى الليل .

وكانت عملية الهز تتم فى وسط أنوار الكلوبات الساطعة ، والعمل فيها يبتهج له الأنفار أكثر ، اذ هو عمل فى الليل حيث الجو معتدل ولطيف ، وحيث الأغانى ، والنور الساطع ، والظلام الذى يتيح بعض اللعب ، يتيح لليد الخشنة أن تمتد الى الجارة ويتيح للجارة أن تتغابى وتسكت .

كان الأنفار يسعدون بالعمل فى الليل رغم كل شيء ، ورغم أنهم كانوا يعملون أيضا فى النهـار ، ولا ينامون سـوى تلك السويعات القليلة التى يختلسونها ساعة الفجر وساعة الغروب ،

ولكنه عمل بأجرين والجسد المرهق ليس مشكلة ، المشكلة فى القرش والفرصة التى جاءت من السماء لاقتناصه واستخلاصه .

كان ميعاد ذهاب الأنفار للغيط قد حان ومع هذا أبوا ورفضوا أن يتحركوا قيد أنملة الا بعد أن يودعوا عزيزة الوداع الأخير .

وحانت اللحظة التى كان على عزيزة أن ترحل فيها ، وجىء باللورى وهو يجأر ويتراجع به الأسطى عبده الى الخلف ويزجر الأطفال الذين يتعلقون بجوانبه ويلعن آباءهم ليستطيع أن يصل الى أقرب نقطة من المكان الذى ترقد فيه عزيزة . ووقف الرجال واجمين متزاحمين حول اللورى ، وما كاد يرتفع صراخ النساء حتى هب فيهن المأمور طالبا السكوت التام مهددا بكسر عنق الواحدة منهن لو فتحت فمها ، فالعملية كان يجب أن تتم بهدوء وبلا اعلان أو فضيحة .

وعلى ضوء كلوب جنيدى الباهت الذى كثيرا ما كان يشحر ويختنق نوره ، لفت عزيزة بالكيس الذى كانت تتغطى به ، وتبرع الشيخ عبد الوارث بحصير بال من عنده لف فوق الكيس ، ثم حملت الجثة ملفوفة بالحصير بين نهنهة النساء وصمت الرجال الواجم ووضعت على أرض صندوق اللورى الخشبية . وجمعت كل القفف والزلع والبلاليص الفارغة من الترحيلة وعلى كل منهم علامة ليعرف صاحبها ، جمعت ووضعت فوق الجثة لتداريها وتخفى معالمها ، ثم صعد الريس عرفة الى العربة وصعد معه بعض أنفار الترحيلة من الرجال ، وتصاعدت صرخة من أم الحسن طالبة أن

تذهب معهم فالمتوفاة حرمة وكلهم رجال وليس أجدر منها بالمحافظة عليها ، ولم تغلق فمها الا حين حملت الى اللورى ووضعت فيه . وعبد المطلب الخفير أصر على أن يرافقهم ليشيع عزيزة الى مقرها الأخير قائلا انه لا يمكن أن يترك الأسطى عبده يذهب وحده فى تلك المهمة الخطرة .

وأخيرا قال فكرى أفندى المأمور لعبده بأنفاس متهدجة :

— اتوكل على الله ياأسطى .

وقال الأسطى عبده وهو يجذب عصا (الفيتيس) :

— توكلنا على الله .. الفاتحة ..

وانسل اللورى وقد تعالى صوت ماكينته من بين مئات الرجال والنساء المتجمهرين الذين لا يضىء وجوههم الشاحبة الا كلوب جنيدى الشاحب والذين لم يتمالك بعضهم نفسه فانفلت صوته رغما عنه يقول : مع السلامة ياعزيزة .. مع السلامة ..

* * *

وبعد قليل كانت العربة قد استوت على الطريق الزراعى الكبير الذى يمر بحذاء شريط الدلتا ، السائق صامت واجـم يدخن السيجارة التى عزم عليه بها الريس عرفه ، وعبد المطلب بجواره صامت هو الآخر وواجم . أما من فى صندوق العربة فقد كانوا جالسين متشبثين بحافة الصندوق وكأنهم يتحاشون الجلوس فوق ابر حادة ، كلما هزتهم العربة تشبثوا بالحافة أكثر محـاولين قدر

الطاقة أن يبتعدوا عن كومة القفف والبلاليص التى ترقد تحتها المرحومة .

وبينما العربة تئز وتتمايل بحمولتها ، وأزيزها المكتوم تحمله الرياح ، وتتشربه على مهل كتل الظلام الهائلة الرابضة على صدر الكون ، كان خط أنفار الهز قد انتظم تحت ضوء الكلوبات المعلقة على عروق طويلة ، والعصى الخيزران قد بدأت ترتفع وتهوى على الظهور المحنية بينما أصوات الخولة والسواقين تصرخ بنبرات متقاربة متلاحقة : وطى يا ولد .. وطى يابنت .

خاتمة

وانتهى العام ، ورغم كل شيء كللت جهود فكرى أفندى بالنجاح ، وهزمت الدودة رغم فقسها ، وسلم المحصول ، وعاد الغرابوة الى بلادهم .

وحين جاء العام التالى على التفتيش وجاء الغرابوة كان الفلاحون لا يزالون يذكرون بعضا مما حدث لعزيزة وحكايتها ، ولكن الحاجز الذى كان قائما بينهم وبين الترحيلة كان قد زال نهائيا والى الأبد ، وأصبح من المعتاد أن يسهر رجال الترحيلة مع أهل العزبة فى بيوتهم ، وأن تختلط النساء بالنساء ، بل حدث ما هو أكثر من هذا اذ تزوج سالم أبو زيد أحد (كلافة) التفتيش ببنت غرباوية راقت فى عينه فخطبها ثم ذهب الى بلدها حين عادت فى جمع من فلاحى التفتيش ليخطبها من أهلها ويحضرها عروسة .

ولم يشهد العام التالى فكرى أفندى مأمورا للتفتيش ، فالخواجه زغيب كان قد باعه حقيقة للشركة البلچيكية ، التى عينت له مأمورا كالخواجات من عندها وان كان قد عرف بعد هذا أنه تركى ومسلم ولكن له شكل الخواجات وهيأتهم ، ولكن الشركة والمأمور الجديد لم يدوما طويلا أيضا ، اذ ما لبثت الشركة أن باعت الأرض للأحمدى باشا حين عرض عليها ثمنا مناسبا بلغ ربحها فيه آلاف الجنيهات ، وقلب الباشا نظام المزارعة الذى كان

سائدا فى التفتيش الى نظام الايجار ، وأمضى الفلاحون عقود الايجار على بياض ، ووضع هو فيها ماشاء من شروط .

ولم يفاجأ الناس حين أصبحوا ذات يوم فوجدوا أحمد أفندى سلطان قد قدم استقالة من عمله وغادر التفتيش ، وقيل انه وجد وظيفة كاتب فى مكتب أحد محامى المختلط فى طنطا ، لم يفاجأ الناس لعلمهم أن أحمد سلطان كان على الدوام ضيقا بالعمل فى التفتيش معتبرا أنه يضيع عمره وشبابه فيه برخص التراب . الناس فوجئوا حقيقة حين اختفت الست لنده ذات يوم وجن مسيحة أفندى وهو يطوف البلاد طولا وعرضا ويبحث عنها . وزالت المفاجأة وانكشف السر حين عرف أنها ذهبت لتتزوج من أحمد سلطان ، وأن الزواج تم فى مركز البوليس وأن استقالته واختفاءها وكل شيء تم باتفاق بينه وبينها . وأضاف ما حدث الى عمر مسيحة أفندى عشرات الأعوام فشاب معظم شعره وأصبح لا يهتم بنظافة ثيابه أو وضع المناديل لتحمى ياقته من عرقه ، وقاطع لنده وزوجها وآلى على نفسه وأولاده وزوجته ألا يعرفوها أو يروها أو تأتى سيرتها على ألسنتهم . ولكن الأيام — آه من الأيام — ما لبثت أن جعلته يغفر وينسى ، ويرد على الخطابات الكثيرة التى ظلت لنده ترسلها اليه كل أسبوع بخطاب متزمت مقتضب ولكنه يبدأ بتلك العبارة :

ابنتنا العزيزة لندا .

ومضت الأعوام تشهد خلافات من نوع جديد تنشب بين الفلاحين الذين أصبحوا مستأجرين وبين الأحمدى باشا ، محاكم ،

ومحضرين وحجوزات ، وحراس على البهائم والمنقولات ، وبيوعات بالمزاد العلنى ، وحـرائق كيدية فى سـواقى التفتيش ومكنـه ومحاصيله .

وقامت الثورة ، وصدر قانون الاصـلاح الزراعى ، وباع الأحمدى باشا الأرض للفلاحين وباع كذلك كل معدات التفتيش من بهائم وركائب وماكينات حرث ورى ودراس ، حتى السراية والمخازن الضخمة هدها وباعها أنقاضا . وكذلك استغنى عن جميع الموظفين والخولة والأسطوات والأنفار . وغادر بعضهم التفتيش وانقلب بعضهم الى فلاحين واشتروا أرضا ، والوحيد الذى بقى موظفا هو مسيحة أفندى الذى عهدت اليه دائرة الأحمدى باشا بمسك حسابات المائتى فدان التى بقيت على ذمة الباشا .

وتغيرت معالم التفتيش تماما فلا سراية ولا اصطبلات ولا ادارة ولا مأمور ولا مفتش ولا شغيلة أو خفراء أو تملية ، ولكن مجتمع جديد أصبح هو الموجود ، مئات الملاك الصـغار يقطنون نفس البيوت التى كانوا يقطنونها وهم أجراء وفلاحون ، مئات الصغار الذين بدأ بعضـهم يكبر ويغتنى ويؤجر ، وبدأ بعضهم يصـغر ويحتاج ويستأجر .

مضت الأعوام ، وتعاقبت التغيرات ، وانقطع بطبيعة الحال مجىء الترحيلة ونسيهم الناس تماما ونسوا كل ما كان من أمرهم وأمر عزيزة ..

كل ما تبقى منهم ومنها شجرة صفصاف قائمة الى الآن على جانب الخليج الذى لم يغيره الزمن ، يقال انها نمت من العود الذى استخلصوه من بين أسنان عزيزة بعد موتها فطمس فى الطين ونبت وكان أن أصبح تلك الشجرة . وأغرب شىء أن الناس لا يزالون يعتبرونها الى الآن شجرة مبروكة ، وأوراقها لا تزال مشهورة بين نساء المنطقة كدواء أكيد مجرب لعلاج عدم الحمل .

« انتهت »